دراسات في
شعر سعاد الصباح

صورة الواقع العربي

في شعر

سعاد الصباح

د. مها خير بك ناصر
أ. اسماعيل اسماعيل مروة

صورة الواقع العربي

في شعر سعاد الصباح

د. مهـــا خـــير بك ناصـــر
أ. إسماعيل إسماعيل مروة

سعاد الصباح

مقدمة

د. سمير سرحان

سعاد الصباح

تبرز سعاد الصباح بقامتها الشامخة في عالمنا العربي المعاصر أديبة متميزة في شعرها ونثرها فضلاً عن تميزها في مواقفها الإنسانية والوطنية والثقافية.. فهي قد كتبت الشعر.. كما كتبت النثر.. وكتبت الدراسات العلمية كما كتبت في القومية والوطنية..

غمست سعاد الصباح قلمها في مداد من قلوبنا.. ومشاعرنا.. آمالنا وأحلامنا.. لحظات الإحباط الهائلة العظيمة فينا.. ولحظات الفرح الغامر والنشوة الهائلة في قلوبنا، فعبرت دائماً عن مكنون مشاعرنا.. وعن كل قضايانا.. رجالاً ونساء.. فلم يقتصر شعرها علي التعبير عن مكنون المرأة.. عقلها وروحها.. وإنما عبّرت أيضًا عن الرجل.. فليس شعرها من قبيل الشعر النسائى ، وإنما هو شعر عظيم وكفى.

فسعاد الصباح.. منذ أن غمست النغم في مداد المشاعر الإنسانية الرقيقة الجياشة حيناً بالفرح، وبالغضب حيناً آخر، لم تكن تعبّر فقط عن المرأة.. عن كل ما يجول داخل قلبها وعقلها من أسرار.. وإنما كانت تعبّر أيضًا عن الرجل الشرقي بكل ما يحمله علي كتفيه من تراث العنجهية والتعالى وثقافة القبيلة.. كما تحدثت أيضاً عن مشاعر الرجل ليس فقط تجاه الأنثى.. وإنما تجاه الموقف الإنسانى الواحد.

خاضت سعاد الصباح منذ البداية حربها الشعرية بأسلحة الوزن والصورة الشعرية المفاجئة والجديدة، البسيطة والمركّبة في آنٍ واحد، وبتركيب القصيدة المحكم، وباللغة السهلة والمفردات الساحرة التأثير النافذة دائماً كالسهم.. في أعماق القلوب.. وبصوتها الشعري القوي المتجدد الذي يقول هأنذا أحمل إليكم لغة شعرية جديدة.. تعبّر عن مشاعر جديدة.. في عالم جديد..

خاضت سعاد الصباح منذ البداية بهذه الأسلحة الشعرية الحرب دائماً ضد القبيلة.. لا قبيلتها فقط.. وإنما قبيلة العرب أجمعين.. وقبائل العرب لا تعرف سوى قانون الرجل.. وتعتبر خروج نساء القبيلة على هذا القانون.. نوعاً من التمرّد غير المقبول ولا المحمود..

وهكذا كان على سعاد الصباح أن تعود إلى صفوف الرجال في القبيلة.. وأن تخنق صوتها الشعري الذي يعبّر عن جموح العاطفة وقوّة المشاعر ورهافة الإحساس.. لكنها عملت وبإصرار وعزيمة لا تلين علي أن تكسر قانون القبيلة لتصبح ذاتاً متفردة ونسيجاً وحدها.. يرتفع صوتها في كل مكان تطالب باحترام عقلها.. واحترام قلبها.. واحترام إنسانيتها.. وألا ينظر أحد إليها كما ينظر إلى إحدي نساء القبيلة.. جسداً جميل التكوين أو وجهاً رائع القسمات.

وعندما فقدت سعاد الصباح وطنها، لأشهر طالت أو قصرت، ناضلت وكافحت كأعتى الرجال، وتجاوز حبّها مشاعرها الشخصية ليحتضن كل ذرة من تراب الوطن السليب.. وعندما كتبت **هل تسمحون لي أن أحب وطني** كانت رمزاً للوطنية الكويتية بل وللوطنية العربية الخالصة في أعظم وأعلي تجلياتها.. بل إنها مثل شاعر السيف والقلم محمود سامي البارودي جمعت بين أبياتها المشحونة بحب الوطن ولوعتها علي استباحته من جانب المعتدي، وبين النضال الحقيقي علي أرض الواقع، فأخذت تقود المظاهرات في ميادين العالم تنادي بالحق في الوطن.. وفي الصلاة علي ترابه.. وتدين البغي والظلم والطغيان.

إن سعاد الصباح، التي تعتبر في طليعة شاعرات العرب، بدأت حياتها الشعرية بصوت رومنسي لكنه متمرد.. رفضت للفتاة العربية أن تكون مجرد وجه أو جسد جميل .. رفضت مواضعات فرضتها عليها التقاليد الصارمة التي سلبتها إنسانيتها وحوّلتها إلي مجرد فرد من الدرجة الثانية في جماعة يحكمها الذكور، تلتزم بما تقوله الجماعة وتفعل كما تؤمر.. واكتشفت من خلال روحها الشاعرة ضرورة تفردها.. فتفردت.. وأصبحت صوتاً قوياً أصيلاً فريداً يعبّر عن العصر بكل مفرداته..

د. سمير سرحان

صورة الواقع العربى فى شعر سعاد الصباح

د. مها خير بك ناصر

صورة الواقع العربى فى شعر سعاد الصباح

المثقّف العربىّ يعانى القلق فى واقع صعب ومعقّد ، ومهمّته الثقافيّة تدفعه إلى موقف جرئ وواضح من قضيّة إنسان بلاده ، قبل أن تنطلق رؤاه نحو عالم إنسانىّ شامل .

والمواجهة تملى عليه ردم الهوّة بين حلمه العربىّ الفاعلّ ، والواقع المأساوىّ الراهن . بهذه المعادلة ترصد الصباح المعطيات الكميائية غير القابلة للتفاعل فتلمس التضادّ والتناقض ، والتباعد المعنوىّ ، بين ماضٍ عريق سجّل على صفحات التاريخ أعظم ملاحم حضاريّة ، وظرف مهيمن مشحون بالاضطرابات والانقسامات . فتفجّر الحلم هدمًا لمظاهر الانحطاط فى حياتنا ، وأنفسنا ، وآمالنا لترفق ذلك بدعوة إلى إزالة ما يعيق قيام أمّة نهضويّة عربيّة واعدة .

ترى السعاد أنّ الإنسان العربىّ مشدود بين قطبين بالقوّة عينها: الاستسلام للراهن ، والرغبة فى الخلاص ، فلا يكفّ عن الحركة لينجو من تمزّقه النفسىّ الذى يهدّده بفقدان إحداثيّات انتمائه ، ومستويات تفاعله.

إنّ الشفاء من أوجاع التشرذم ، والتنافر ، لن يكون إلاّ بالنظر العقليّ إلى الوقائع والمظاهر والعوارض واستنساب الإيجابيّات والسلبيّات ، فى مجتمع محبط ثقافيًا واقتصاديًا ، وسياسيًا ، واجتماعيًا .

إنّ الواقع العربيّ الراهن محكومٌ بالتجزئة النفسيّة التى أوجدها الاستعمار بنوعيه الداخليّ والخارجيّ ، وهذا التمزّق يزداد رسوخًا ، ويعيد مستوى الوحدة الوطنيّة إلى مستوى التعاطى القبليّ أو العشائريّ فيعانى الفرد العربيّ ضغطًا نفسيًا وقمعا فكريًا يتوصّل معه إلى قبول التسوية مع واقعه ، وهذه التسوية تدفع به إلى إلهاء نفسه بمهاترات يوميّة لا شأن لها بالوطن ولا بقضاياه وكرامته .

فالواقع الثقافيّ اليوم مفرَّغ فكريًا ، وقد استعيض عن هذا الفراغ بمناظرات كلاميّة جوفاء فى الصرف والنحو ، تغلّف فراغها الوشايات التافهة التى تملأ الوقت بالقشور وتسرق الجوهر ، وبالخلافات فى أمور الحداثة والشعر العامودىّ والآراء الفلسفيّة ، من دون الالتفات إلى دور المثقّفين الفاعل الحقيقىّ ؛ ولعلّ الأمر الأكثر إلهاءً للشعوب العربيّة الاختلاف على الأديان ، وتحويل الطقس الدينىّ إلى صنميّة يوميّة مع تجاهل انعدام العدالة المجتمعيّة، علمًا أن الأنبياء كلّهم نادوا بالعدالة .

بذلك صارت الشعوب العربيّة تعبد القشور وتهمل المعنى ، فازدادت الخصومات العربيّة نتيجة الاستزلام «للخلفاء» بدل البحث عن قضيّة الإنسان في بلادنا .

يا زمان الصرف ، والنحو ، شبعنا عبثًا
وكلامًا فارغا ..
ووشايات نساء ..
أعطني سيفا ..
وخذ منّي دواوين جميع الشعراء
أعطني عدلا ..
وخذ منّي تعاليم جميع الأنبياء
أعطني خبزا ..
فما يشبعني خبز السماء
أعطني الشعب ..
وخذ تيجان كلّ الخلفاء

قدّمت الشاعرة وصفًا دقيقًا ، وحقيقيًا ومعبّرًا عن الإنسان العربيّ المستسلم إلى عجزه وفشله والمطمئنّ إلى سقوطه ، هذا الوصف يعكس في حقيقته وجوانبه ارتباطها الوجدانيّ العميق بالقضايا القوميّة الكبرى واحترامها لإنسان بلادها ، هذا الإنسان

الذى توارث جوهر أخلاقيّاته ولكنّه أخفى الجوهر بقشور سطحيّة أفقدته فاعليّته كإنسان عليه دورٌ إيجابىّ نحو وطنه . فكان وصفها للعرب وصفًا علميًا معرفيًا مبنيًا على الاحترام والصدق من دون تغليف .

تقدّم الصباح وصفها الوجدانىّ العقلىّ لأبناء قومها ، من خلال انتمائها إلى هذه المجموعة العربيّة التى تحبّ ولكنّها ترغب فى واقعٍ أفضل لها ؛ ولا يعنى وصف الحقيقة نيلاً للموصوف بل من باب «من أحبّ أظهر العيوب للخلاص منها» : «**نحن العرب، طيّبون ، وبسطاء ، ومقتلنا يكمن فى أننا نعشق الفصاحة**» .

إنّ المحبّة الصادقة لا تخفى الحقائق ، بل تعرّيها وتكشف عن مكامن الضعف ، للتخلّص منها وإلغاء مسبّباتها ، وبهذه المحبّة عينها رأت السعاد أنّ الجماعة العربية تقيم فى الماضى ، وتحيا بأفكاره البالية ، وتقاليده المهترئة ، تلبس أشكالاً خيّطت لزمن غير زمانها ، فسيطر عليها الموروث ، وكرّرت ذاتها فى لحظات زمنيّة متتالية ، فخسرت حاضرها ، وتركت بنيانها فوق اضطرابات أشبه برمال متحرّكة ، مما أوجد إحباطًا قوميًا ، وإفلاسًا روحيًا ، وقحطًا نفسيًا ، فجاء وصفها لهذا الواقع مسبوقًا بالتساؤل الكيفىّ الذاتىّ الذى يعبّر عن النزف الداخلىّ فى نفس المبدعين فى الوطن

العربىّ ، هؤلاء الراغبين فى حركة تخترق الحاضر نحو المستقبل، ولكن كيف تسير المجتمعات إلى الأمام بنَفَسٍ مصاب بالإحباط ؟

يا أحبابى

كيف بوسعى

أن أتجاوز هذا الإفلاس الروحىّ

وهذا الإحباط القومىّ

وهذا القحط ... وهذا الجدب ؟

عبّرت الأديبة عن قلقها ووجعها القومىّ ، وخوفها من نتائج الكذب والتشرذم ، والاتّجار بالأوطان ، بتصوير الواقع بكلّ مآسيه وأوجاعه وأمراضه ، فالمجتمعات العربيّة تعانى التخلّف . والإنسان العربىّ استسلم إلى شبقه الاستهلاكى ، هاربًا من قيمه وتاريخه وعلومه الدينيّة الأصيلة ، ومارس وجوده فى مكان واحد لا يتخطّاه ، هاجسه البحث عن وسيلة يضمن بها المكان ويبقى فيه ، فالتغيير ليس من صلاحيّاته ، إنّه حكرٌ على السلطة المدنيّة التى تستخدمه وسيلة إلهاء ، فى أمّة تتناول الشكل ، وتقمع الجوهر ، حيث يسيطر التخلّف والجهل وتتحكّم فى العقول فكرة البحث عن الوفر المادّىّ والربح ، وتنسى الأصالة والقيم العربيّة

الأصيلة، فالأخ يقتل أخاه طمعًا بالكسب ، والمدنيّة الجديدة تخلّت عن حضارة الفكر والنضال والوحدة وصار الدين فيها طقسًا شكليًا بعيدًا عن المنبع .

هذا الحزن النفسيّ والانهزام القوميّ يهدّد المبدعين بالهروب من الواقع المشحون قهرًا إلى فضاء من الحريّة .

في واقعٍ أنكر ذاته كانت بيروت بالنسبة إلى سعاد الصباح المتنفّس القوميّ والفضاء الفكريّ الواسع الذي يمنحها حريّة التعبير وتفريغ القلق .

آتى إليك اليوم ، يا بيروت

هاربة من قلقي لنفسيّ ...

(...)

آتى من التخلّف الكبير ...

(...)

آتى إليك من ثقافة الشراء ... والبيع

(...)

هاربة من مدنٍ قد أحرقت تاريخها

وطلّقت مبادئ العروبة

وطلّقت مبادئ الإسلام

دعّمت تصويرها بقدرات حركيّة ساعدتها على كشف الحاضر وتعريته، فهذا الشعب الذى هجر الأصل وتمسّك بالقشور حوّل أرضه من مرتع محبّة ، وإيمان ، وتسامح ، وحرّيّة ، وعدالة ، ومساواة إلى معتقل للقهر ، تمارس فيه أبشع صور الإجرام الإنسانيّة ، من إذلال ، وقتل ، وظلم ، وعبوديّة ، وحقد ، وكراهية ، وبغضاء . والأكثر شراسة وعنفًا وقبحًا ما ترضعه آذان الأطفال العرب من الإذاعات العربيّة، فتنمو فى نفوسهم وعقولهم روح البغضاء والتفرقة ، بدل الألفة والتعاضد ويكبر الصراع فى جسد الأمّة الواحد ، ويهزل بنيانه ، ويضعف ويفقد قدرته على مواكبة الفكر . ويكون التمزّق بين فعل ريادىّ يفرضه العقل والمنطق وهيكليّة مقطّعة الأجزاء ، متباعدة ، فتكبر الهوّة ، ويعتلّ العضو الواحد ، ويصير القمع الوسيلة واليد . إنّ الشاعرة تعود فى رسم مأساتها إلى أعماق التاريخ العربىّ تستحضر الذاكرة وترى أنّ التغيير فى أشكال الأنظمة العربيّة كان سطحيًا فى مظهره تخريبيًا من الداخل ، كان تغييرًا ظاهريًا مسقطًا على حياتنا الفكريّة من حالة وضعية غير مرئيّة ، وهذا الإسقاط مفرَّغ من المحتوى الفاعل ، فيعوَّض عن فراغه بالإرهاب الفكرىّ والقتل ، والمنع والتجزئة والتفرقة فتشمئزّ الذات من ذاتها ، وتنفر الروح

من الروح . إنّه واقع عـربيّ تراكميّ بدأ بعـد وفاة رسـول الله ، وهو يزداد مع الأيّام سـوءًا ، وصار الأخ يـقتل أخـاه ، والمسلم يحلّل سفك دم أخيه المسلم ، والمخيف في هذا الواقع شحن روح البغضـاء والتنافر في نفوس الأجيـال المتعاقبة وتـشتّت النفوس ، وتحكُّم القمع والإرهاب ؛ واقع بدأ لحفظ كـرسيّ وانتهى بتخريب الإنسان .

إنّني بنت الكويت
كلّما مرّ ببالي ، عرب اليوم ، بكيت
كلّما فكّرت في حال قريش
بعد أن مات رسول الله
خانتني دموعي ، فبكيت
(...)
كلّما أبصرت طفلا عربيًا
يشرب البغضاء من ثدي الإذاعات
بكيت
كلّما شاهدت جيشًا عربيًا
يطلق النار على الشعب ... بكيت

تلتقط سعاد الصباح بالعين الثالثة ، التناقض المخيف بين أحلام الحاكم وتخيّلاته ، وحقيقة الأمر ، فالنظريّات ، والشعارات ، والهتافات، والكلام على تطبيق الشريعة «**واجعلوا الأمر شورى بينكم**» كلّها كلمات فرّغوها من مفهومها . فالعلاقة الوجدانيّة بين الحاكم والشعب مفقودة ، رباطها التخويف والتهويل ، وحرّيّة الرأى مقتنصة ، والتآزر بين الأشقّاء العرب يقرأ فى جواز السفر .

إنّ التفتُّت يصيب مقتلاً من طموحات وآمال المجنّحين بأحلام العروبة، والمتمنطقين بلواء القوميّة العربيّة ، ولكنّه لا يكسر الحلم

كلّما حدّثنى الحاكم عن عشق الجماهير له

وعن الشورى .. وعن حرّيّة الرأى .. بكيت

كلّما استجوبنى بوليس قطر عربىّ

عن تفاصيل جوازى ...

عدت من حيث أتيت

هذا الواقع العربىّ المفكّك واقع عبثىّ ، يدعو إلى السخريّة والألم فى آن معًا ، إنّه استسلامىّ فى سكونيّته ويتجاوز المعقول والمنطقىّ .

ولمّا كانت الحال الأكثر تعبيرًا عن التجاوز المألوف والعادىّ

هي حالة الجنون ، فلقد وصفت الشاعرة العصر العربيّ بأنّه «عصر عربيّ مجنون» ولكنّه ليس جنون خروج وتمرّد ، وابتكار بل هو جنون سلبيّ استسلاميّ، غرائزيّ ، لا يحمل المعنى الغيبيّ الرؤيويّ ، لأنّ الرؤيا كشف وريادة ، وجنون العصر العربيّ انهزاميّ ، إنّه بالأحرى نوع غياب عن الوعي وفقدان توازن ، يخفي العجز والفشل والسقوط .

العالم العربيّ يخالف الطبيعة والحياة ، فالعالم اليوم يتّجه إلى توحيد الطاقات وتفعيل القدرات من أجل بناء المستقبل الأكثر ملاءمة مع تطوّر الحياة ، والمجتمع العربيّ غارقٌ في عشقه لذاته.

لقد رصدت الصباح حركة العالم نحو التلاقي حول المصالح المشتركة، ورصدت التحوّلات التي قلبت المفاهيم والأيديولوجيّات والأفكار الخاطئة ، ورصدت في مقابل ذلك واقع الأمّة العربيّة فوجدت أنّ العالم يسير باتّجاه الديمقراطيّة والحرّيّة والسلام ويتّجه نحو تدمير أسلحة القتل الجماعيّ ، ويؤمن بالحضارات وينحني أمام حرّيّة الإنسان .

أمّا العرب فيعيشون في غيبوبة غافلين عن حركة الزمن ويمارسون لعبة رؤساء المافيات والعصابات وقطاع الطرق ، والملاكمين ، ويسكنهم «نظام يقهر الإنسان ويستعبده ويحوله إلى فتافيت إنسان» .

هذا الواقع العربيّ تختصره السعاد بقولها : «العالم يزداد تلاحما ، وتداخلا ، ونحن نزداد نرجسيّة ، وأنانيّة ، وعزلة ، وتقوقعًا» .

هذه الحال المفرّغة من الفاعليّة جعلت من جامعة الدول العربيّة شركة مساهمة فقدت بتنافر مؤسّسيها رصيدها المادّيّ والمعنويّ ، وضعفت إمكانيّة المواجهة وقدرة المقاومة فأعلنت إفلاسها وتخلّت عن الالتزام والتعاطى بقضايا الأمّة الكبرى «فأشهرت إفلاسها وبدأت تبيع طاولاتها وكراسيّها ، وملفّاتها فى المزاد العلنيّ» .

وبهذا التصريح الخطير تعلن الشاعرة غياب أيّ دورٍ فاعل للجامعة العربيّة ، إنّها شكل مؤسّسة تتاجر بمصير الشعوب العربيّة .

لقد تحوّلت المجتمعات العربيّة إلى مشانق ومدافن موتى ، وهى تفخر بتميّزها كمثال فاضحٍ للقتل والنهب والظلم ، والاستسلام والخنوع والتحول العكسيّ السلبيّ . فى متابعة لأحداث هذه الغوغائيّة تلهث الصباح لتلتقط صور المآسى الإنسانيّة فى المجتمعات العربيّة ، فتبصر شعوبًا تنقاد إلى موتها المخيف والمذلّ ، موت يفتقر إلى شرف الموت ونبل الشهادة .

على هذا المسرح المصطنع لا يميّز بين الأحذية والجماجم ، إنّ

أصحاب الجثث أرقام مرّت في بال الحكام ثمّ أسقطوها من حساباتهم بعد الانتهاء من عمليّات الجمع والطرح والضرب والقسمة .

واقعٌ مأساوي يغرِّب الأرض عن ذاتها وأصالتها وطبيعتها ، ويجعلها مسرحًا لأشكال التعذيب والقتل والاغتيال ، حيث يمارس قتل الأبطال تغييبًا لمعنى البطولة ، وتكريسًا لمظاهر بطوليّة جوفاء ، تتراكم عبر التاريخ طقسًا يثبت ألوهيّة الحاكم .

تتشابه كالرّزّ الصينيّ

تقاطيع القتلة

مقتولٌ يبكي مقتولاً

وحذاء يدفن قرب حذاء

لا أحد يعرف شيئًا عن قبر الحلاّج

فنصف القتلى في تاريخ الفكر

بلا أسماء

لكلّ ظاهرة سبب ووراء كلّ حالة مرضيّة خلل عضويّ ، واضطراب في تجاوب أجهزة الجسد ، وبالتّالي ، لابدّ من وجود سبب يكمن وراء اعتلال الأمّة العربيّة وعدم تناسق أداء أعضائها .

تعلن الأديبّة بجرأة المواطن الصالح التوّاق إلى سلامة الانتماء وفاعليّته، الأسباب الكامنة وراء هذا التخاذل العربيّ وتحدّدها .

تعتقد الصباح أنّ الأنظمة العربيّة الفرديّة هى السبب الرئيس فى هذا التشرذم والتعنّت العربيّين ، وفرديّتها شكل من مظاهر تكريس عصمتها. والتفرّد فى حكم المجموع من صفات الخالق ، وحكّام الأنظمة الفرديّة يفرضون أنفسهم على شعوبهم هالة من القدسيّة والعصمة ، وبالعصمة والفرادة ينغلق باب النقاش والحوار، وترفض السلطات أن تتعلّم شيئًا ، لأنّها تعتبر ذاتها الكمال المطلق ، وبإغلاقها باب المعرفة يبطل عمل الفكر، وبإبطال عمل الفكر تتوقّف الحياة الطبيعيّة عن مسارها .

إنّه واقع اتّسم بجهوزيّة سلبيّة تقف ضدّ تقبّل المعرفة وتلغى التفاعل السياسىّ والثقافىّ والديمقراطىّ ، فتزداد الأنظمة الفرديّة نرجسيّة وتأليهًا لذاتها ، وتتّسع الهوّة بين مجتمع يمشى نحو الأمام وآخر يتقهقر على كافّة المستويات .

ترى الشاعرة أنّ ديكتاتوريّة هذه الأنظمة كانت السبب فى تدمير الحضارات وتعرّف بهذه الأنظمة الفرديّة قائلة : «إنّ أسوأ ما فى الأنظمة الفرديّة أنّها لا تصدّق إلاّ نفسها ولا تثق إلاّ بتقارير مخبريها وشرطتها السرّيّة والأنظمة الفرديّة عبر التاريخ هى التى أشعلت الحروب الكبرى وأحرقت المدن ودمّرت الحضارات» . والأنظمة الفرديّة صارت - فى رأى الصباح - حكرًا على المجتمعات العربيّة التى يقهر حكّامها شعوبهم ويستعبدونها ، فى وقتٍ بدأت أشكالها تتساقط فى «كلّ مكان فى العالم».

لقد غُيّب الإنسان العربيّ عن ذاته، وازدادت انهزاميّته وسلبيّته ، وتصالح مع عبوديّته فخان حرّيّته ، وانغمس في انحطاطه واغتال الإنسان في داخله .

إنّها معادلة واحدة لها وجوه كثيرة ، إنسان مستعبد ذاته العظمى باستعباد الآخر لذاته الصغرى ، والمستعبد الذات الصغرى هو مستعبد لآخر يحتقره ، والمحتقر هو ذليل أمام آخر يسيّره والنتيجة انسحاق ورعب، وانعدام الثقة والاطمئنان . قلق مزعج لا حياة ولا حركة فيه وبالتالي لا فكر ولا إبداع ، لأنّ المجتمعات العربيّة أفرغت فاعليّتها في تحفيز روح التجسّس ودخولها في خلايا الأدمغة وسرقت مظاهر الحياة والحرّيّة والاطمئنان .

فعصر المباحث صادرَ منّا السماء

وصادرَ منّا الحقائب ، صادرَ منّا السفر

وأدخل للسجن ضوء القمر !!

إنّ الإنسان الذي تعتبره المجتمعات الغربيّة ثروة هو حذاء قديم في المفهوم العربي .

العربيّ المعاصر عاجزٌ عن فهم ذاته ، عاجزٌ عن تحمل مسؤوليّاته ، وعن محاسبة نفسه ، إنّه في حالة غيبوبة وانعدام وزن يخسر أحلامه في عبوديّة السهولة ، والمصالح الآنيّة الماديّة ،

وتقليد الآخر في كلّ أشكاله ليكون النسخة المشوّهة المثيرة للضحك والاشمئزاز ناسيًا أصالته ، متخلّيًا عن شجاعته وكبريائه، وإبائه ، ونخوته . لقد فقد كلّ مقوّماته الذاتيّة ، وغيّب وجوده عن مقوّمات الأصل والجذر ، وتخلّى عن المثال والرمز ليذوب في شعوبيّة أكثر تذويبًا وسحقًا لشخصيّته .

هذا الواقع المرير تنقله الصباح باستحضار شخصيّة صلاح الدين إلى ساحة الحياة العربيّة المعاصرة ، فتشعر الذات الكلّيّة المنغرسة في أصالتها، جذرها ، أنّها صارت غريبة عن الشكل المصطنع المزيّف القائم جاعلة من الحلم مطيّة لتجاوز الواقع .

كلّما أبصرت في الحلم صلاح الدين
يستجدي فتات الخبز في القدس
ويستعطي على باب السيوف العربيّة
كلّما شاهدته
تائها ، يسأل في الصحراء عن أحياء طيٍ
وتميم ، وغُزَيَّة ...
كلّما شاهدته في مركز البوليس ،
مرميًا على الحائط من غير كفيلٍ أو هويّة
صحت في أعماق جرحي :

أيّها العصر الشعوبىّ الذى
صار فيه السيف يحتاج لإبراز هويّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ الإمبراطوريّة العربيّة كان لها نظامها وهيكليّتها ولم تكن بنيتها قائمة على أسس الدولة المدنيّة .

ومن هذه الزاوية تحاول الشاعرة أن تبرر الاهتراء فى واقع الدول العربيّة وتحيل مظاهر التمزُّق النفسىّ والمجتمعىّ إلى أسباب الجهل بمقوّمات الدولة العصريّة التى تحاول سلطاتنا التعامل معها من خلال الموروث لشكل الدولة القبليّة :

«لابدّ لنا أن نعترف أنّ فكرة الدولة عندنا لا تزال غيبيّة وهشّة، فالدولة كانت فى أغلب الحالات ميراثًا شخصيًا ، أو عائليًا ، أو دينيًا ، أو عسكريًا ، أو انقلابيًا ، وبرغم أنّنا نعيش منذ مئات السنين فى مدن كبيرة فنحن لم نستوعب حتّى الآن فكرة المدنيّة ، وقوانين المدنيّة ، وتنظيمات المدنيّة ، ولا نزال نواجه قضايانا السياسيّة ، والاجتماعيّة ، والدوليّة بمنطق البادية ، وشرائع البادية» .

إنّ الجهل بمقوّمات الدولة المدنيّة أخضع الإنسان العربىّ إلى استبعاد داخلىّ ، للقهر والاستعباد ، والثروات العربيّة الطبيعية كانت سببًا لغزو الإنسان العربىّ اقتصاديًا ونفسيًا وفكريًا ، وبهذا

الغزو غُـيِّب عمل العـقل الواعى ووُجّهت قـدراته نحو مـهاترات أقـعدته علـى هامش الحيـاة المعـاصرة ، وأغـرقـته فـى التمـويه والتسلية، وأبعدته عن أصالته العربيّـة ، وشمائله وقيمه، وطريقة تفكيـره فتحـوّل الإنسان العـربىّ فى بعض الدول العربيّـة بوجود النفط إلى انتهازىّ ، مادّىّ ، انبطاحىّ ، ذليل ، تافه ، قد تخلّى عن أخـلاقه وحـريّته ليـصيـر مسـتعـبدًا للنفط والمادّة ، وبهـذه الانبطاحـيّة عند قـدمى النفط - ترى الصـباح - أنّ العـربىّ هدم تاريخه المضئ ، واستـغنى عن كلّ ما هو أصيل وعظيم : «لاعنة النفط الشيطانىّ» :

ثمّ جاء النفط شيطانًا رجيمًا
فانبطحنا عند رجليه رجالاً ونساءً
وعبدناه صباحًا ومساءً
ونسينا خلق الصحراء ... والنخوة ، والقهوة
والمهباج ... والشعر القديما ...
وغرقنا فى التفاهات
هدمنا كلَّ ما كان مضيئًا
وأصيلاً وعظيما ...
(...)

ثمّ حلّت لعنة النفط علينا

فاستبحنا كلّ ما ليس يباح .

إن طمع الغزاة الاقتصاديّين بالثروات العربيّة الطبيعيّة جعلهم لا يطمئنّون إلى نتائج الغزو الاقتصاديّ والنفسيّ والفكريّ ، فحاولوا غزو المجتمعات العربيّة أخلاقيًا ، ودينيًا ، محاولين تفريغها من كلّ القيم والمبادئ والأخلاق ، لتمتلئ بالشبق والشهوة، والخمر ، وتغتال الذات العربيّة من كيانها وأخلاقياتها وشهامتها وتصير الحماسة العربيّة والشهامة العربيّة أشكالاً تراثيّة لا معنى ولا محتوى لها .

هذا الواقع الجديد ترسمه الصباح بكلمات تتوافر بدفق الموسيقى النفسيّة المضطربة والقلقة أمام مصير وطنها الغامض ، فنلمس مرارة اليأس بتزاوج الحروف والكلمات التى نفخت فيها السعاد من روحها وأحلامها وهى تنقل المجتمع العربىّ الجديد الغارق فى شهوة المال والجسد والخمر والهوى .

فالبساتين فراش للهوى

والنساء الأجنبيّات ..

يعطّرن ليالينا الملاح

والدنانير على الأقدام ترمى ...

وعلى الأجساد تصطفّ القداح

هكذا يا وطني ...

ترفع رايات الكفاح

هكذا يبكى على الحائط سيفٌ

أثريّ لأبى

هكذا من بأسه يبكى السلاح .

ألمس أنّة «أنا» السعاد الوجدانيّة التى خذلها الواقع العربىّ وانهيار القيم فيه ، فوقفت نادبةً تلك البطولات التى جمّد مضمونها التخاذل فى أشكالٍ بطوليّة مختزلة بسيوفٍ تبكى على الحائط . لكأنّى بها تجعل من البطولة العربيّة ذكرى مأسورة لا تملك إلاّ التعبير عن انهزامها أمام «حائط المبكى» ، فهل سنحوّل تاريخنا العربىّ إلى حائط مبكى ؟

إنّ المبدعين وحدهم يستوعبون عمق المأساة ويغرسون أحلامهم فى بيادر الذاكرة يلقّحونها من خصب التاريخ ، سعيًا إلى مستقبل أفضل .

والذاكرة العربيّة المبدعة ماضيًا وحاضرًا ، ما زالت تخصّب وجودها من ذوات مضيئة فى تاريخنا ، والصباح التى صدمها الواقع الانهزامىّ الانبطاحىّ الاستسلامىّ ارتّدت إلى ذاكرتها ،

تستصرخ مثلاً أعلى فى أعماق وجدانها ، تشكو لطيف الرجل المثال بشاعة الواقع العربيّ الذى استعاض عن فراغه الروحيّ وإفلاسه القوميّ ، بمهاترات حكّامه المتعالين على أصول بروتوكول الخطاب العربيّ ، وروحيّة المناقشة والحوار ومخاطبة شعوبهم ، ليتقرّبوا من ذواتهم الحقيقيّة فاستعاضوا عن الأصول ، بالغوغائيّة، وعن الحوار بالوحشيّة ، وعن الخطاب السياسيّ بالقتل والدمار.

حمل بوح الصباح الوجدانيّ الألم والنقمة ، الألم على فقدان الرئيس جمال عبد الناصر والروح القوميّة ، والنقمة على أعراب تخلّو عن قيمهم:

يا ناصر العظيم ،

لا تسأل عن الأعراب

فإنّهم قد أتقنوا صناعة السبابْ

وواصلوا الحوار بالظفر وبالأنياب

وحاصروا شعوبهم بالنار والحرابْ

لم تكتف الصباح بتصوير الواقع وكشف الأسباب التى أوصلت المجتمعات العربيّة إلى واقعها المرير بل تسلّحت بالمعرفة والتحليل لتترجم بجرأة ووضوح وصراحة نظرتها المنطقيّة العلميّة

إلى النظام الاجتماعيّ والسياسيّ القائم فعبّرت بشعرها عن كلّ ما لمسته من انهيارات ، واعتقالات، ومآس ، واغتراب جسديّ ونفسيّ ، وكشف برسومها الوشاح المأساويّ الذي يستر الخطر والإبادات الجماعيّة تلبية قرارات متزمّتة فرضتها نرجسيّة الحكم وساديّته نتيجة استسلامه لصنميّة الشكل الجاهز الموروث مع تفنّن في أشكال القمع والسلطة ، فحريّة القول ممنوعة ، وحريّة التفكير أيضًا ، ومن يخرق قانون المحرّمات يخرج من دائرة الحياة.

لقد قرّر العالم العربيّ اغتيال الكلام

وقرّر أيضًا ...

إبادة كلّ الطيور الجميلة - كلّ الحمام

إنّ التطلّعات السياسيّة الخاطئة ، تنتهج القمع ، وتغييب الآخر ، وتأمر بوأد الفكر الحرّ ، ووضع القيود ، والحواجز وتهدف إلى اختلال التوازن النفسيّ والروحيّ ، فتبطل فاعليّة الخلق والولادة ، ويختزل العصر العربيّ نفسه بالفقر ، والإرهاب، والموت ، فلا انبثاق ، أو تبرعم ، أو انبعاث .

هل ينبت قمح من جسد الفقراء ؟

هل ينبت ورد من مشنقة ؟

أم هل تطلع من أحداق الموتى

أزهار حمراء.

اخترقت الشاعرة بالتساؤل الهادف حجاب الأشكال القمعيّة ، كاشفة عن مظاهر القحط الناتجة عن نشر الخوف والإرهاب في زمن محاصر بالموت والرعب . زمن صار فيه الإنسان الحرّ فقيرًا مسكونًا بالذلّ والرعب والخوف والخيبة ، زمن مفرّغ من الخلق والإبداع .

في هذا الواقع المأساويّ ليس من المعقول أو المحتمل أن يولّد الخوف والرعب والقمع تفتّحًا فكريًا زاهيًا ، أو تبرعمًا ، وليس من المحتمل أيضًا أن تكون رؤية من أحداق حجبت رؤيتُها بالموت. إنّه واقع محنّط يفتقر إلى مقوّمات الإنبعاث والثورة .

ولكي يستوعب الإنسان العربيّ مأساته ، ويعي أبعادها ، تقيم لقاءين بين عالمٍ يتقدّم بحركة مستقبليّة غايتها الإنسان وسعادته ، فيزداد تلاحمًا ، وتداخلاً وانصهارًا ، ومجتمع عربيّ يزداد نرجسيّة ، وعزلة ، وأنانيّة ، وتقوقعًا ، فيغرق في سكونيّته، رافضًا التطوّر ويصطاد روح الإبداع قبل بلوغها ، ويحوّل مثقّفيه إلى طبول يردّد قرعها أهواء الحكّام ، ورغباتهم وتُسَجَّل الانكسارات بطولة ، والظلم فلسفة عدالة ، ويقزّم الحلم العربيّ مناظرات عقيمة في دكاكين تباع وتشترى فيها الضمائر ، فانسلخ المثقّف العربيّ عن ذاته الكبرى ، واتّحد بذاته الصغرى ليكون خادمًا أمينًا يعمل على تأكيد وتثبيت عصمة أسياده الحكّام،

فيتخلّى عن دوره الإنسانيّ وعن رسالته المقدّسة ، ويرضى الدخول في مرحلة اللاوعي ، ومرحلة التغرُّب عن الذات ، ومرحلة الموت المعنويّ حيث لا يشعر ولا يتفاعل إلاّ مع رغبات السلطة وأحلامها . وفقدت الثقافة العربيّة هويّتها ، فهي السبب بثقافة الأصل أو الأخذ . إنّها ثقافة تثبت تقليد الماضي أو تقليد الغرب ظاهرًا لا مضمونًا ، لأنّ المضامين هي روح والروح شفافيّة وصدق ، أمّا الثقافة العربيّة فهي ثقافة استزلام قمعيّة ، تلغي حريّة الإنسان الإبداعيّة ، فانخفض بذلك المستوى الثقافيّ وتحوّل المثقّفون إلى تجّار وسماسرة، ترسمهم الصباح بصورة معبِّرة عن الواقع الثقافيّ بقولها: **«إن سوق النفاق الثقافيّ في ذروة ازدهاره هذه الأيّام»** .

لم تؤثّر الثقافة في تحسين حياتنا وطرق عيشنا ، لأنّ ثقافتنا تعليميّة سطحيّة مصلحيّة ، نتعلّم لنحظى بالمراتب والوظائف أو لتحقيق رفاهيّة مزيّفة ، فلم تستخدم الكلمة العربيّة أو الثقافة العربيّة بشكل عام من أجل تحسين الواقع بل لمصالح شخصيّة .

لقد قزّمنا أهداف العلم وجعلنا من فضائه الواسع ثوبًا ضيّقًا على مقاس حاجاتنا وغاياتنا الماديّة الآنيّة المحدودة ، فتشوّه الزمن العربيّ بالقبح، وعدم الانتماء ، وفقد الشعر رسالته الإنسانيّة العظيمة ، وصار الشاعر ينافق في تصوير الواقع ، ويكذب في

التعبير عن مشاعره وقضايا الإنسان في داخله . والسبب في رأي الصباح هو الإرهاب الفكريّ ، والقمع والقتل والاغتصاب النفسيّ ، وتخلّى الشعراء عن ذواتهم المألّة فلم يتمخضوا عن شعر إنسانيّ عظيم ، فكانوا في رأيها ، من أولئك الذين تنزل عليهم الشياطين .

استعانت الأديبة بالقرآن الكريم ، الذي ميّزت آياته البيّنات بين شعراءٍ أفّاكين كاذبين وشعراء يؤمنون بالحقّ الإنسانيّ ويعملون الصالحات، وهؤلاء سينتصرون من بعد ظلم ، فكان لها من ثقافتها القرآنيّة برهان تثبت من خلاله فهمها الجوهريّ للحياة وصلاحيّة أفكارها وآرائها :

يا زمان القبح .. من أين يجئ ، المبدعون ؟
في بلادي
وعلى أيّ صليب من دموع يولدون ؟
أعطني شبراً من الأرض يسمّى وطنًا
ما به مشنقة ، أو مخبرون
لا تغطّيه المنافي والسجون ..
(..)
يا زمانًا

ما له لون ولا طعم ، ولا رائحة

رحل الأعراب عنه ، وأتى المستعربون

واستقال السيف من أحلامه

واستقال الفاتحون

وصل السيف إلى الحلق

وما زال لدينا شعراء يكتبون

وصل السلّ إلى العظم

وما زال لدينا شعراء يكذبون

ويقولون على الأوراق ما لا يفعلون

إنّ السبب الرئيس لهذا الارتداد والتخاذل الفكريّ انعدام وجود الأفكار الحقيقيّة والأصليّة في حياتنا القوميّة والتي يتغذّى منها المفكّر العربيّ فكلّ أفكارنا الإيديولوجيّة مستعارة ولم تنبع من حاجاتنا ومواقفنا كعرب .

لكلّ أمّة ذاتٌ تميّزها وتفخر بها وتعزّز أصالتها ، والذات العربيّة ذات أصيلة متأصّلة في وجودنا وتاريخنا وكياننا ، ولكنّها ذات مغيّبة عن مسرح تفاعلاتنا وقضايانا ، وغيابها أصاب المثقّفين الحقيقيّين المؤمنين برسالتهم القوميّة بالإحباط فتحوّلوا عن مبادئهم

وسلكوا سبلاً تؤمّن لهم العيش لا الحياة ، أو تحوّلوا عن قضيّتهم عمدًا لانعدام القضيّة : «بعض الثوّار تحوّلوا إلى بائعين متجوّلين، وبعض الأحرار أطلقوا الرصاص على الحرّيّة ، وبعض القوميّين العرب أثبتوا أنّهم غير قوميّين وغير عرب» .

السبب الثانى يكمن فى الصفات المكتسبة للشعوب العربيّة ، هذه الصفات التى جعلتهم سطحيّين يؤخذون بالقشور ، فيصابون بالدهشة السلبيّة وينهزمون أمام بريق المظاهر ، وزيف القشرة الخارجيّة ، من دون أن يتوصّلوا إلى الكشف الجوهرىّ والحقيقىّ، فيتلهّون بالأسباب الظاهرة ويغضّون النظر عن البحث فى المسبّبات. والفرق شاسع بين الشكل والمضمون ، الشكل ثوب خارجىّ والمضمون روح وجوهر بين الجسد والروح يكمن سرّ الألوهة . والعرب لم يعتادوا البحث إلا فى شكلٍ ظاهرىّ فخسروا سرّ الروحىّ وفاعليّته : «لقد تعوّدنا نحن العرب أن نرى ظاهر الأشياء وقشرتها دون أن نتعمّق فيما وراء الأشياء ودون أن ننتبه إلى ما يجرى تحت أقدامنا من مياهٍ جوفيّة» .

إنّ التأثّر السطحىّ الثقافىّ يلغى التفاعل بين الثقافات . والأمم التى لا تستفيد من تجارب الآخرين تهدّد بالهرم السريع . ولذلك يمكننا القول إنّ عدم وجود الرؤيا الفكريّة حرم العرب من الإفادة من تجارب الآخرين فأخذوا بالسطحىّ ولم يتعمقوا فى سير

المعطيات التى أوصلت الشعـوب الأخرى إلى الإيديولوجيّات التى آمنوا بهـا ، لأنّهم اهتمّوا بـالأشياء الجـاهزة، من دون النظر إلى مكّوناتها ومعانيها ، وذلـك - فى رأيى - صورة من صور طبيعة العلاقة الاستهلاكيّة التى طبـعت علاقة المجتمع العربىّ بالغرب ، فالأفكار الغربيّة ، كما المنتجات الاستهلاكيّة ، يتقبلها العربىّ من دون البحـث فى تكوينها وتشكّلهـا ؛ فاهتـمّوا بالنتـائج والمظاهر وأغفلوا حقيقة التركيبات وتفاعلاتها . والعقل العلمىّ أثبت خلال رحلة العلم اللامتناهية أنّ تحقيق الكفاية العلمـيّة يلزمه معرفة تامّة بسير التجربة وأسباب النتائج التى حصلوا عليها .

إنّ العـرب لم يعتـادوا الإفادة من تجـارب الآخرين ، وكـان اعتـمادهم على تقليد الأشكال الجـاهزة ، وهذا التقليـد يقتل كلّ قـوّة ابتكار وكلّ إبداع، وبفـقدان طاقـة الابتكار والرؤيا تتـراجع مجتـمعاتنا على كافـة الأصعدة، وتنعدم الثقـافة ، والثقافـة كما تراها الصباح بمعناها الشمولىّ «هى موقف الإنسان فى صراعه من أجل الحقّ والعدل والحرّيّة» ، وثقافة من هذا النوع غير متوفّرة فى واقعنا الحاضر .

إنّ الشعوب العربيّة العربيّة لم تستطع حتّى اليوم هضم الثقافة الغربيّـة، وتحويلها بالتفـاعل الذاتىّ إلى شخصـيّتها ، وثمّ تعـيد إنتاجهـا وفقًا لحيـاتها وعاداتها وتقاليـدها الأصليّة . وفى الوقت

عينه لم تستطع المحافظة على أصالة التراث ، ففقدت ارتباطها الفاعل بالجذر من جهة ، ومجاراتها للانطلاقات الفكريّة في الغرب من جهة أخرى ، ممّا جعلها ثقافة مهزومة غير قادرة على مواجهة العصر وتحدّياته .

المثقّفون العرب يشهدون الاغتصاب التاريخيّ لهويّتنا القوميّة، واقتلاع جذورنا المعنويّة والنفسيّة والعاطفيّة ، ويقفون موقفًا محايدًا من قضيّة مصيريّة كهذه . فكانوا بهذا شهود زور على تغيير مقوّمات الأصالة وامتداداتها الروحيّة في انتمائها العريق .

رأت الصباح في هذا الاغتصاب خطرًا أكثر من الاغتصاب الجغرافي. تقول إنّ «اغتصاب الجغرافيا هو اغتصاب أرض وحجارة ، أمّا اغتصاب التاريخ فهو اغتصاب للإنسان بكلّ امتداداته الروحيّة والحضاريّة والقوميّة والدينيّة والثقافية» .

والاغتصاب التاريخيّ أوصل العرب إلى الخروج من تاريخهم في وقتٍ «تتّجه فيه شعوب العالم إلى العيش المشترك» .

إنّ الواقع العربيّ الثقافيّ هو نتيجة لأوضاعنا السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة ، لأنّ الثقافة الحقيقيّة وليدة الحرّيّة التي تسمح بالسؤال والبحث والكشف . وواقعنا العربيّ قمعيّ يفرض على المثقّف الجواب الجاهز ، فحكم القناع الذي يحجب جوهر العلاقة بين الظاهر والباطن ، واغتُصب الحرّيّة الفكريّة عند

المثقّفين وفرض عليهم التعاطي بالموثقات التي يفرضها عليهم الحكم لتكريس عصمته ، فازدادت الهوّة النفسيّة بين ريادة المثقّف وتبعيّته ، وكان للشعر الحظّ الأكبر في هذا الانحطاط لأنّ الشعر يجب أن يكون عالمًا إنسانيًا حرًا تتماوج فيه تجليّات الروح وانقساماتها ، وتتلاقى من خلاله الأرواح المنفلتة من ماديّتها ، ولكنّ القمع أفقده إنسانيّته، فمارس وجوده هروبًا وانهزامًا . وأقلع الشاعر العربيّ عن بثّ رؤاه وأحلامه التي تنقل الإنسان من المادّة إلى الروح ، خوفًا من عصرٍ عربيّ يمارس على شعبه حالة الإغماء الروحيّ والنفسيّ العاطفيّ إنّه «عصرٌ عربيّ فيه توقّف نبض القلب» .

وبالتالي فلا حريّة ، والكلام على حريّاتنا العربيّة زيف وخداع . إنّها في أشكالها جوفاء ، وفي معانيها تضييق وانقياد فالحريّات العربيّة مفرّغة من المضمون والحقيقيّ وبالتالي لا حاوٍ ولا محتوى فعليّ ، وبغياب الاسم والمسمّى ، العلامة والغاية، تنتحر الحريّة ويضيع الإنسان العربيّ .

إنّ الفرد العربيّ إبتُلي بوأد الكرامات ، وخيانة رسالته الإنسانيّة ، فخسر ذاته ، وأخلاقه ، ووصم حياته وتاريخ وجوده بعار الاستزلام ، والتبعيّة أو بداء الصمت ، ولكن الصباح ترى في هذه النكبة اختبارًا ، للصبر وللإيمان باختزال الطاقات وصولاً

إلى ألم المخاض فيتخلّص الشاعر العربيّ من انبطاحيّاته ويتعالى عن إرضاء السلطة بكلّ أنواعها وألوانها .

يا زمان الانهيارات شبعنا

من دكاكين السياسات ، وغشّ اللاعبين

يا زمان الانكسارات لماذا

يلثم الشعر نعال الفاتحين ؟

قرنت الأديبة رفضها بالنقد الصريح المعبّر عن الحالة السياسيّة والاجتماعيّة ، والفكريّة . فالسياسات العربيّة التى تمارس خوفها من اليقظة والوعى ، سجنًا واغتيالاً ، وإقامة جبريّة ، بنت سياستها على الساديّة واعتقال النخبة ، لقطع الفاعليّة بينهم وبين المواطنين ، فلا حقيقة تُمِّد الشعب بنور الكشف والمعرفة ، ولا نور يضئ ظلمات حياته المدلهمّة بالقهر والحرمان ، والعبوديّة ، فالفكر معتقل ، والخوف ينشر ظلاله فى كلّ قلب ومنعطف ، ممّا أحدث شرخًا بين الإنسان وذاته ، فكلّ شىء ملغوم بالتنصّت والرقابة ، بغية تحويل الجميع إلى قطعان تفتقر حتّى إلى مكوّناتها الطبيعيّة ، وتكتفى من الحياة بالعيش الغريزىّ .

حتّى الشمس ... أخذوها من بيتها

(...)

حتّى ضوء القمر

(...)

طلبوا إلقاء القبض عليه

(...)

حتّى كلامنا في المقهى أو على الهاتف

مسجّل على أشرطة

ومحفوظ في أرشيف المباحث العامّة

إنهّم يحاولون أن يغتالوا القصائد

ويحرقوا غابات الحبّ الخضراء

ويستأصلوا رجولة الرجال

وأنوثة النساء

والقمع السياسيّ للفكر العربّي متأصّل في نفوس الحكّام، وتاريخنا يضجّ باغتيالات أهل الفكر والحرّيّة، الذين أبت كرامتهم الصمت، فأخرس القهر والتعسّف أنفاسهم، ولكنّ صدى الصوت ما زال يقلق هجعة الكثيرين ويحثّهم على النهوض، بالرغم من تعتيم أصحاب القرار على وجود المبدعين، ومحاولة قتل الفكر عند الأجيال الصاعدة التي أصبحت - في

رأى الصبـاح - «أجيالاً هابطة مسـحوقة ، ضـائعة ، مشمـئزّة، قرفانة ، كافرة بكلّ ما تسـمعه أو تقرؤه . . . عن مروءات العرب وشهامتهم وعدالتهم» .

إنّ الأنظمة الـفرديّة فى الأمّة العـربيّة لم تكتف بالاسـتئثار بالسلطة وتسخيـر أهل القلم للتشبث بألوهيّتها الأرضـيّة ، وتبرير ظلمهـا باسم الحقّ والعدالة والقـضيّة . لقـد كانت النتائج أكـثر خطورة ممّا نتوقّـع لأن أيًا منهم لم ينتبه إلى تشـتّت اللغة العـربيّة وتجزئتها أيضًا .

إنّ اللغة هى ذات الأمّـة ، وإذا انقسمت إلى لغـات ، كانت النتيجة انقـسامًا فى الانتماء الشخصىّ . وهذا الـقلق نقلته السعاد قائلة : «انقسمت اللغة العـربيّة إلى اثنين وعشرين لغة . . . لكلّ لغة منها مفرداتها وأسماؤها، وإعرابها » .

وتشرذم اللغة العربيّة يضـعف الصلة بين المبدعين والمثقّفين فى أقطارنا العـربيّـة ، وهنا يكمـن مقـتلنـا ، عندمـا يبطل الخطاب الفكرىّ بين المبدع والمبدع . فما هى الحلقة الأصيلة التى نأمل فى توثيق عروتها لتعود إلى الحياة ؟

إنّ الذات العربـيّة المتأصّلة فى المـناقب قد رحلت عمـليًا عن ساحة التصادم الديناميكىّ الفكرىّ ، تاركة دورها ومفرّغة ساحات الفكر ومشوّهة أيّامنا بالخنوع والاستسـلام والتبعيّة ، ولكن يجب

ألاّ ننغـرس فى تشاؤميّـتنا، وانهزامنـا ، بل أن نستمـدّ من إبراز الحقائق ، وتجسيمها حافزًا على الرفض والتمرُّد ، فالحلّ لا يكون بالانصـياع أو الهـروب بل فى المواجهـة من أجل تحويل التـراكم الفكرىّ والنفسىّ والتاريخىّ إلى حركة فاعلة متميزة بالنوعيّة .

إنّ الإنهيـارات العربيّـة تؤصّل فى ذوات المبـدعين العصـيان والخروج ، والرغـبة فى التغيـير ليكتبوا تاريخ الفكر المتـحرّر من التخـاذل والاستسلام ، مـتجاوزين قـيود الشكل ، والتضـييق ، بثورة تتـمرّد على قبول العـصمة ، والضمنيّـة . فيكون الوصف للواقع تجاوزًا للسـائد والمقبول ، والمسلَّم به ، وتأتى الكتـابة طاقة تغيـير ، تدعـو إلى عالمٍ فسـيح من اليقين والثـقة فـيولد الشكّ والرفض ومن ثمّ القـبول ، فلا يواجـه الواقع بالعرف الـسائد بل بالرؤيا الخاصّة التى تتمرّد على القـيم العامّة المصنوعـة والمسقطـة على الحياة، وتكشف عن القيم المرتبطة بالجذور والجوهر .

إنّ رسم الانهيارات العـربيّة فى أدب الصباح ، كان تأسـيسًا لهـدم الأشكال المهتـرئة المشوّهة فى جـسد العـروبة ، ليلغى كلّ ارتباط بماضٍ غير الماضى العربىّ ، والتخلّص من السقوط الكامل فى عرفٍ غير عربىّ .

دعت الشاعرة المجتمعات العربيّة إلى رفض الذلّ والانكسار، والتخـاذل ، والجبن والخوف ، فكان رفضـها تفجـيرًا لتراكـمات

اجتماعيّة وسياسيّة ، واقتصاديّة ، وامتداداً لجذور نفسيّة وتاريخيّة فاعلة في اللاوعي.

إنّ الحياة العربيّة - في رأي السعاد - ليست فارغة تمامًا ، إنّها ما زالت تنبض بالخصوبة ، إلى جانب الشكل الصحراويّ المتحجّر ، وهي قابلة للحركة بالرغم من سكونيّتها ، وسلبيّتها ، إنّ كمونها الذاتيّ ينتظر غضبًا يفجّرها .

جعلت الصباح من الغضب عامل يقظة ، فحيث تفصح النفس عن غضبها معبّرةً عن سخطها ، وعدم قبولها الشيء الجاهز المفروض ، تكون الكرامة في خير ، ويكون التحضير للهدم ، دعوة لقلب المظاهر الاستسلاميّة وتغييرها بالخروج على القناعة والخنوع ، والقبول السلبيّ ، فتثور النفس بالاستفزاز ، ورفض المألوف والتخلُّص من النشوة الكاذبة المصطنعة .

إنّ الثروات الطبيعيّة التي يفترض وجودها تحسين الواقع الاقتصاديّ ، والاجتماعيّ والسياسيّ ، حوّلت الشعوب إلى سبايا مضلّلة ، ترى حريّتها في سبيها ، ومنزلتها في استسلامها ، واطمئنانها في جهلها ، ولذلك تبقى التحوّلات اليقظة الفاعلة ، والنزوع عن الاطمئنان الكاذب مرتبطة بإرادة الشعوب التي تتفجّر غضبًا يهزّ المستنقع الآسن ويعيد إلى الحياة خصوبة العطاء والتفاعل :

اغضبي ...

أيّتها الأرض التي أسكرها المال

وأعماها البطر

إنّني أرفض أن أعتبر النفط قدر

(...)

اغضبي أيّتها الأرض

فإنّ الأرض لا يفلحها إلاّ الغضب

إنّ الغضب - في رأي الشاعرة - يفجّر طاقات المثقّف العربيّ ليثبت فاعليّة الذات العربيّة ومدى صمودها من أجل التغلّب على الواقع ، فيتأصّل في انتمائه العربي ، ويزاوج في ذات الأمّة بين رفض خارجيّ وداخليّ ، لتتعالى هويّتنا الحقيقيّة على الاستسلام، والانصياع . ويعيد الفحص بحثًا عن الضروريّ في ضوء الحاضر وحاجات إنساننا المعاصر ، وشروط معاشه ، وارتقائه ويؤجّج صموده الفكريّ رسالة الكلمة ويثبت دعائم قضيّته ويوقظ الطاقات ويفعّل ديناميكيّة الانتماء في النفوس والواقع والتاريخ ، لإزالة الصدأ المصنوع من الذلّ ، لتتربّع الكبرياء على عرش العزّة والكرامة .

لقد حاولت في شعرها أن تفعّل دور الشعر في مجتمعاتنا

العـربيّة التى تخلّت عن الفكر والثـقافـة . والكلمة وحـدها هى القادرة على بثّ الحياة وتحفيز الطاقات لتتمرّد على واقعها الذليل، وتخلص من عيـبها ، وعبـوديّتها ، وانقيـادها وتستعيـد شعورها بالعظمة والكبرياء .

أيّها الشعر الذى
يُحرق بالكبريت أشجار السماء
يا الذى يأكل من قلبى صباحًا ومساء
يا الذى يحفرنى حتّى العياء ..
كيف ترضى موقف الذلّ ،
أليس الشعر ابن الكبرياء ؟

إنّ للشعـر فى مفـهوم الصبـاح فاعليّـة جدليّة . يـنتقل من الوصف الذى يرسم الحـقـائق ويخبـر عن نتـائجهـا ، ويكشف بشاعتها ، إلى حركة تختزل ضمير الإنسانيّة ، وتنقل الشرارة التى تبدأ الفتح فى طريق الثورة بحثًا عن حريّة فكريّة .

الشعـر موقف من الإنسـان ، ودعوة إلى وقف الاخـتناق ، بثورة تضجّ بالغضب لينكشف المجـهول المحتجب بتراكمـيّة القمع والإرهاب .

والشاعـر الحقيقىّ رصـاصة معنويّة تصـروع صنميّة العـبوديّة

الفكريّة ، وتهزّ هيبة السلطة المخابراتيّة ، لأنّه متّحدٌ بذاته الكبرى المتحرّرة من المصالح الشخصيّة الآنيّة ، يتجاوز الأنا إلى كونيّة إنسانيّة شاملة . ومن كان هدفه المستقبل لا يرهبه التهديد والتعذيب والقتل ، إنّ الحرف سيفه، والكلمة جناحاه ، وبهما يتعالى على العروش والقهر والكبت ، ويشقّ طريق التمرّد.

فالشاعر مُطالَبٌ بتجسيد دوره ، ونشر رسالته ، وذلك بتحفيز قدرات وطاقات أبناء الحياة لينبذوا الذلّ ويخترقوا الظلام العربيّ نحو فجر المستقبل:

نحن طيورٌ مثقّفة لا تطيق

غسل الدماغ ، وكسر العظام

ونحن حروفٌ مقاتلة

سوف تهزم بالشعر كلَّ عصور الظلام

إنّ الشعراء رسل الحياة والكرامة والإباء والمعرفة ، إنّهم مفعَّلون بالرفض والحركة والتأثير ، وغير مسموحٍ لهم بالتقصير في أداء المهمّة ، أو خيانة الدعوة . بهذه الفرضيّة تتوجّه نحو الشعراء ، تحضّهم على أن يبقوا حلقة الوصل بين اللامرئيّ واللاملموس وبين الإنسان ، وتحثّهم على أن ينقلوا رؤاهم بصدقٍ وأمانة وكبرياء ، ويتعالوا على صغائر المادّة .

استخدمت الشاعرة أسلوب التساؤل الهادف إلى تفجير الرفض ، بالخروج على الصمت ونبذ شهادة الزور التاريخيّة ، والتعالى على تثبيت عصمة النظام والتأكيد على قمعيّته العادلة ، وإرهابه المحبّب ، وقهره المكرَّم، وذلّه المسلَّم به ، واستعباده المقدّس فتخاطب الشعراء قائلة :

لماذا يسكت الشعراء أمام الذابحين ؟

(...)

لماذا

تلمس الكلمة أقدام أمير المؤمنين ؟

تطالب الأديبة الشعراء العرب بأن يحافظوا على أصالتهم الفكريّة ، ولكن بعيداً عن التقوقع ، والانغلاق ، والجمود .

إنّ الحياة الجديدة تعرض عليهم نزع القشرة ، والتفاعل مع ثقافات أخرى شريطة ألاّ نسقطها على فكرنا وحياتنا وثقافتنا ، بل نتفاعل معها، ونفاعلها بنا ، لأنّ الحياة اتّحاد عناصر فى لحظة ما من أجل ولادة عناصر أكثر جدّة ، ولكن لكل أرض ، ولكلّ بيئة ظروف تثبّت الأنواع الملائمة للأرض والحياة .

إنّ الفكر العربىّ - فى رأيها - قابل للتفاعل ، ولكنّه ضدّ الذوبان وبالحرّيّة الحقيقيّة تتناغم حياتنا بثقافات متنوّعة نشدّها إلى

أصالتنا ولا تقتلعنا من جذورنا ، نجتذبها إلى فضائنا ، ولا نسخّر فضاءنا لسيطرتها :

ويسعدني أن تظلّ بلادي
ملاذ العصافير من كلّ جنس
وبيت المغنّين والشعراء

بهذه الرؤيا تجد في الشاعر إنسانًا مبدعًا ، خلاقًا يؤسّس لمجتمع إنسانيّ مثاليّ ، إنّه معلّمٌ ثائر ، ريادىّ ، ومثال ، يزرع مقوّمات الرفض، بانغراسه في مثاليّته وعصاميّته ، وبنزوعه عن مواقف الذلّ والعبوديّة إلى فضاء من الحرّيّة .

تقدّم الصباح المجتمع الرؤيوىّ مثالاً لتحرّض بفاعليّته الذات العربيّة الخانعة لتثور على واقعها وتهدم أشكال تبعيّتها وليزداد ارتباطها بالأصل فيشاد على ما بقى صالحًا مجتمع جديد متطوّر بتطوّر الحياة ؛ ينتزع حرّيّته بقدراته وطاقاته مهما كان الواقع القمعىّ مخيفًا وسيّئًا ، ويخلق الحياة الطبيعيّة الحرّة الجميلة والكريمة من أعماق مأساته وقهره ، وينطق بالحقّ والحقيقة مهما كان نوع العذاب والتعذيب .

هذا الشكل الجديد من أشكال هدم الأنقاض النفسيّة تستعين الشاعرة على تصويره بالمناجاة والتساؤل الاستنكارىّ في ظاهره

والتقريرىّ فى مغزاه ومحتواه ، بوجـود فاعِلِيَّتَىْ المحبّة والرغبة فى التعلُّم .

يا أحبابى
أرجو أن أتعلَّم منكم
كيف يغنّى للحرّيّة من هو فى أعماق البئر ؟
أرجو أن أتعلّم منكم
كيف الوردة تنمو من أشجار القهر ؟
أرجو أن أتعلّم منكم
كيف يقول الشاعر شعرًا
وهو يُقَلَّبُ مثل الفرخة فوق الجمر ؟

بالمعرفة تتجوهر النفس ، وبالثـقة تُقتحم الحصون ، وبالإيمان تُدكُّ الأسوار القمعيّة، وعندمـا يتخلّص الشعب من خوفه ويعرف قيمـة الحرّيّة ، لا يقبل أن يموت جائعًا ، خـائفًا ، مذلولاً ، لأنّ الحـياة الكريمة تصنعـها إرادة الـشعـوب الكريمة . لقد حـرّضت الصباح الشـعوب العربيّة على القـيام بثورة حقيـقيّة تشعل فـتيلها الطاقات الإبـداعيّة التى ترفـض الخنوع والجمود من أجـل تحويل الإنسان فى مجتـمعاتنا إلى طاقة تفجير تخلق المسـتقبل من نواتها الجـوهريّة وتنفخ فيـه من روح إبائهـا ، وتقلب المفاهيم السـائدة فيصير السجّان سجينًا :

إنّ الشعوب تسجن السجّان
وإنّها حين تجوع
تأكل القضبان

إنّ جيل الشباب العربيّ اليوم مطالبٌ أكثر من أيّ وقت مضى باليقظة، والتسلّح بالرفض فالعالم يتسابق إلى تعزيز دور الإنسان، وتحسين أوضاعه ، والإنسان فيه يسعى لينهض بمجتمعه بدءًا من ذاته .

أمّا الإنسان العربيّ فقد سكّنه الخنوع والرضى والاستسلام ، إنّه يتوارث قوالب السهولة ، ويرضى من الحياة بالعيش .

تحاول الأديبة أن تُحْدِثَ صدمة في نفوس أبناء اليوم بالسؤال الموّجه الهادف إلى إيقاظ الروح المتحرّرة من عبوديّة الجسد ، والسائرة نحو كمالها بحريّة مطلقة وإباء وكرامة ، رغبة في ولادة حركة ذاتيّة تتمّرد فيها النفس على استلابها الطوعيّ . كانت الكويت المنطلق الأساس لنداء شباب المستقبل في عمليّة وجدانيّة متنامية تهدف إلى التصعيد من الجزئيّ إلى الكلّيّ فتأتي مخاطبتها لأجيال الكويت خطوة أولى نحو الحديث إلى جيلٍ عربيّ متكامل.

لأنّ الصرخة تبدأ من الذات الداخليّة ثم تنطلق بأثيريّتها

وفاعليّتها ، وذبذباتها نحو المحيط الأثيريّ الأقرب ، من الأنا الذاتيّة ، والكويت هي الأنا الذاتيّة الأولى للصّباح فهي تنطلق منها وبها إلى أناها العربيّة الأكثر شمولاً واتّساعًا .

فكان خطابها الأوّلي لأبناء الكويت دعوة لرفض الانقياد إلى الاستعمار الاقتصاديّ الذي أوجد نفسيًا واجتماعيًا وسياسيًا وذاتيًا ، فصار الإنسان العربيّ مقموعًا مرّتين ، يقمعه الغزو الخارجيّ ، ويقدّم إليه إغراءات ماديّة تلغي الإنسان فيه ، فيقمع الإنسان العربيّ كرامته وإباءه وتمرّده ليرضي نزواته وشهواته ، بالسهولة ، والقريب المتناول ، وإشباع اللذّات .

تحاول الشاعرة أن تعيد هؤلاء الشباب إلى أصالتهم العربيّة ، وتحضهم على رفض غزو النفط لأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وذلك بعودتهم إلى أصالتهم وجوهرهم مفجّرةً في نفوسهم عتب الأرض وغضبها ورغبتها في الخروج على استسلامهم :

هاتفًا : ماذا دهاكم يا بني الجيل الجديد ؟

فقنعتم بالرغيف السهل والعيش البليد

وقعدتم عن طلابي ، وزهدتم في حياضي

أترون الذهب الأسود أصفى من بياضي ؟

تمتشق السعاد في مخاطبة الكويتيّين كلمة الحقّ وتعرّي أمامهم

الحقيقة محفِّزةً روح الرفض للموروث الفكريّ الذى أساء إلى حريّتهم .

والرفض يجب أن يبدأ بالخروج على الشكل الحاكم العادات والحياة الجديدة ، فيكون الشكل الأوّليّ للخروج فى التخلّى عن الإعجاب بالذات فى محاولة للوصول إلى نقد التصرّفات واستخلاص العبر من الأخطاء والتمسّك بالحسنات والإفادة من نقد الآخر سعيًا إلى التحسين وخلق منهجيّة جديدة تساعد فى تغيير طرق التفكير وأساليب التعاطى وجعله يعيد محاسبة نفسه فى كلّ تصرّف يقوم به . وعمليّة النقد الذاتيّ يلزمها رفض التقوقع والخوف ، لأنّهما يلغيان التفاعل مع الذات ومع الآخر ، والمجتمعات لا تحيا ولا تتجدّد إلاّ بتفاعلها مع مجتمعات أخرى فتحوّل ما تراه صالحًا إلى خصائص ذاتيّة فى شخصيّتها وتراثها ، على أن يكون التفاعل مع الواقع الجديد سياسيًّا ، وإيديولوجيًّا ، واقتصاديًّا ، وثقافيًّا لإثبات القدرات على مواكبة العصر : «يجب أن نتعلّم ويجب أن نتغيَّر ، ويجب ألاّ نخاف من مواجهة المرايا ومواجهة أنفسنا (. . .) ونخرج من قوقعتنا وأفكارنا السابقة، وخوفنا المزمن لنصبح جزءًا من إيقاع العصر ومتطلّبات النظام العالميّ الجديد» .

إنّ العلاقة الجنينيّة بأرض الوطن هى التى تحدّد ارتباط الإنسان

بأصالته، بكلّ ما فيها من قيم وأعراف وثقافة ، وبقدر ما يكون هذا الجنينيّ الأوّلى سليمًا ، يخرج الإنسان من رحم التكوين الوطنيّ قويًا ، يستطيع أن يتفاعل مع واقعه ومحيطه ، ويثبت فاعليّته الوطنيّة الأكثر اتساعًا والأكثر امتدادًا ، وكما أنّ الأشجار برهانٌ على أصل البذور ، كذلك يأتى شكل ارتباط الإنسان بالتربة التى انفلقت عنها بذرته وتشقّقت «فالأصول عليها ينبت الشجر» ، والشجرة المتشبّثة بارتباطها بالجذر تنشر ظلالها وأوكسجينها فى الوطن الأوسع والأشمل .

ممّا لا شكّ فيه أنّ ذات الصباح قد تشكّلت من نواة فكريّة تاريخيّة عربيّة ، بكلّ ما تحمل من أبعادٍ وطنيّة وإنسانيّة ، وقيم وأعراف ومفاهيم وثقافات وحضارات ، وهذه الذات استطاعت أن تجد متنفّسها فى وطن العروبة الواحد فوحّدت بين ذاتها الكويتيّة وذاتها العربيّة ، معلنةً تجذرنها وتمسّكها بالكويت ، ومعتزّةً بارتباطها الوجدانىّ والوطنىّ بالعروبة . هذا الشعور كان دائمًا يدفع بها إلى صرخة عربيّة شاملة توحِّد بين جسد الوطن العربىّ ليشعر كلُّ جزء من أجزائه بألم الآخر ، فيرفض الجزء انسلاخه الوجدانىّ والعاطفىّ عن الجسد الأكبر ، لأنّ التقطيع النفسىّ هو نوعٌ من القتل المستمرّ الذى جاء قتلاً نفسيًا أدخل الأجزاء فى المهاترات ، والاهتمامات المادّيّة التى تلهى عن أهميّة الاهتمام الروحىّ والمعنوىّ بالكلّ.

بالرؤيا عينها تحرّض الكويتيّين على النزوع عن المظاهر الماديّة التى أوجدت لإبعادهم عن قضيّة الوطن الكبرى ، وعلى الشعور بما يعانى منه أطفال لبنان ، لأنّه بولادة الشعور الوطنىّ تكون الرغبة فى الانضمام إلى جيش العرب لمواجهة الأخطار . وهكذا تأتى مناجاتها نوعًا من الصرخة الوجدانيّة المختزلة الحبّ والرفض .

يا بلادى

اخرجى من نشرة العملات .. والأسهم

وانضمّى إلى جيش العرب

إنّ فى لبنان أطفالاً يموتون

وعرضًا يغتصب

بالوجدانيّة الوطنيّة ، وبالاعتزاز القومىّ تعلن ارتباطها وتمسّكها بعروبتها ، وتأخذ من هذا الارتباط طريقًا لتحفيز العرب للتخلّى عن استسلامهم ، ونزع القناع المزيّف الذى وضع على وجوههم ، وخلع أشكال الخزىّ التى جعلت العواطف جامدة مشوّهة ، أو بالأحرى تفقد حيويّتها التى تبعث الحركة .

تحاول الشاعرة تحفيز الذات العربيّة الخانعة والمستسلمة إلى عزلتها القوميّة ، وذلك بتوليد الرغبة فى طرح القضيّة كإشكاليّة

تحتاج إلى النظر والتحليل ، فتلقى فى ركود العواطف وسكونيّتها سؤالاً يحرّك العناصر الحيّة الكامنة وراء مظاهر الجمود واللامبالاة.

وبطرح القضيّة تبيّن مساوئها ، آملة التخلّص من واقعٍ جزّأ الجسد العربىّ ، ففقدت الأجزاءاتّ [صالها الشريانىّ وبانقطاع الشريان تجمّدت دماؤها ، وبتجميد الدماء غابت العواطف العربيّة تحت مظاهر إغمائيّة . ولكنّه فى رأى الصباح إغماءٌ وقتىّ، تصدمه بإلقاء السؤال الثانى الذى يعيد بصدمته الذات العربيّة إلى وعيها «هل من الممكن إلغاء انتمائى للعرب» ثم تقدّم الجواب الجوهرىّ والحقيقىّ الذى تؤسّس عليه قضايانا وارتباطاتنا القوميّة ، فيكون الجزء تجسيدًا للكلّ ، ويكون ألم العضو الواحد مبعثًا لألم الأعضاء كلّها ، وتشترك الأقطار العربيّة بمسؤولية واحدة فى مقابلة تحدّيات العصر :

إنّنى بنت الكويت

هل من الممكن أن يصبح قلبى

يابسا .. مثل حصانٍ من خشب ؟

باردًا ..

مثل حصانٍ من خشب ؟

هل من الممكن إلغاء انتمائى للعرب ؟
إنّ جسمى نخلةٌ تشرب من بحر العرب
وعلى صفحة نفسى ارتسمت
كلُّ أخطاء وأحزان
وآمال العرب .

إنّ العمل على خلق مناخ عربى يسوده التفاهم والإلفة والمحبّة والروابط القوميّة المشتركة والشعور بالمصير المشترك ، يلزمه إزالة الخصومات العربيّة المفتعلة التى جزّأت العالم العربى ، وجمّدت مشاعره وعواطفه ، ويلزمه أيضًا قائد عربىّ لوحدة عربيّة تجمع وتقرّب وتوحّد ، يجتمع حول رؤياه القوميّة وطروحاته الوحدويّة الأشقّاء العرب الذين يؤمنون بمصيرهم الواحد .

تطرح الصباح المشكلة ، تحاول إيجاد حلٍّ لها ، وفى الوقت عينه تحاول أن تردّ على أولئك المشككين اليائسين من الوحدة العربيّة ، وترى أنّ العمل على تحقيق الأهداف هو الطريق الوحيد للخروج بنا من نفق الانقسامات والتشرذمات ، فالرغبة فى إعادة اللحمة القوميّة ، وإغنائها بالحرّيّة والثورات الإيجابيّة والانفتاح الكونىّ ، والازدهار والإشراق ، لن تتحقّق إلاّ برفض الاستسلام للحزن واليأس «إنّ الأحزان قد تقتل الجبناء والضعفاء

والمستسلمين، ولكنّها لا تقتل أبدًا من يؤمنون بربّهم ، ووطنهم وقدرتهم على صنع الحياة» .

تقدِّم الشاعرة نفسها كنموذج للذات العربيّة المتعالية على واقعها الانقسامىّ والداعية إلى التخلُّص من يأسها ، والتمسّك بالأمل والعمل على تحقيق مستقبلٍ ينهض بالأمّة العربيّة من تحت الخراب ، وتلغى الرؤيا السرابيّة :

سوف أبقى دائمًا
أنتظر المهدى يأتينا
وفى عينيه عصفور يغنّى
وقمر ..
وتباشير مطر
سوف أبقى دائمًا
أبحث عن صفصافة .. عن نجمة ..
عن جنّة خلف السراب ..
سوف أبقى دائمًا
أنتظر الورد الذى
يطلع من تحت الخراب ...

إنّ عمليّة إعادة الالتحام القوميه عـمليّة صعبة ومعقّدة ولكنّها ليست مستحيلة ، فهى تحتاج قبل كلّ شيء إلى تفعيل دور جامعة الدول العربيّة، لتكون مؤسّسة قوميّة ترعى مصالح العرب جميعًا، ويلتقى الرؤسـاء العرب تحت خـيمة واحـدة مصنوعة من المحـبّة والتفاهم والتعاون ، والتواصل الدائم، وخالية من الفكر النرجسىّ العربىّ الذى كـان سببًـا فى الكوارث القوميّـة ، فيعمل الجـميع كفريق واحـد له أهدافه وغاياته المشتركة.

إنّ دور الجامـعة العربيّة هامٌّ جـدًّا ، ولذلك تحضّها الصـباح على أداء دورها القومىّ الصـحيح وهذا يقتضى رفـضها لواقـعها المفـرَّغ من المعنى والمسـؤوليّـة ، ونزوعهـا عن القـبـول بالشكل والظاهر لتؤسّس مهمّتها على دورٍ قـيادىّ يتحوّل فيه اللقاء العربىّ إلى ذات فـاعلة فى شكلـها ومـعـناها ، فى الاسم والمسـمى ، وبذلك تتخلّص الوحدة العـربيّة من أهم أشكال شرذمتهـا وتباعد العضـو عن العضـو ، لتتوحّـد أعضـاء الكيان العربـىّ فى بوتقة مصيريّة ثقافيّة عربيّة إنسانيّة واحدة .

لقد نقلت رغـبتها هذه فى نقـد الواقع المهيمن لخـرقه والبناء على أصلٍ عربىّ صحيح وذلك برفض الحالة الراهنة التى شهدتها منذ تأسيسها : «فالجامعـة العربيّة منذ تأسيسها منذ عام ١٩٤٥ ، لم تكن أكثر من فندقٍ كبيـر يسكن فيه اثنان وعشرون نزيلا . . . لا يكلمون بعضهم ، ولا يرون بعضهم ، إلاّ فى غرفة الطعام» .

وعندما يستطيع العرب أن يتخلّصوا من التجزئة والانقسامات، يتسلّحون بقوّة لإعادة أصالتهم والدخول مجدّدًا فى «نادى التاريخ» ويلغى الواقع العربىّ الذى جعل أمّتنا العربيّة ذات الأصول ، والتاريخ والطبائع، والثقافة والحضارة الواحدة مجموعةً من (الأمم والقبائل) يذبح بعضها بعضًا، ويقتلع بعضها بعضًا ، ويلغى بعضها بعضًا .

وبالتخلّص من أمراضنا المفتعلة ، والخروج على الواقع المزيّف الدخيل على أصالتنا تعود الأمّة إلى حقيقتها وجوهرها .

إنّ تصحيح الخطأ فى رأس الهرم يبقى ضعيفًا ومهددًا بالسقوط إذا لم تكن القاعدة قويّة ومثبّتة ومتماسكة ، فأىّ تفريغ للقاعدة يهدّد باختلال التوازن ، وينذر بالتداعى والانهيار . .

إنّ الوحدة العربيّة لا تعانى فقط من ضعف فى أداء الجامعة العربيّة بل هناك أخطار أكثر تهديدًا لحقيقتها واستمرار جوهرها فى مقاومة الهجمات الخارجيّة التى تستهدف البنية الداخليّة للمجتمع العربىّ ، والتى تتناول المثقّفين من كلّ الشرائح . وهذا الخوف دفع بالصّباح إلى تحديد المخاطر الذاتيّة التى يفرزها الإنسان العربىّ بإرادته ، ويراكم سلبيّاتها .

إنّ المثقّفين فى كلّ أمّة هم ثروتها الحقيقيّة ، والثقافة هى قلب الأمّة، وفكرها ووجدانها فحيث توجد الثقافة توجد الأمة السائرة

نحو نهضتها ، وكلّما ترسّخ دور الثقافة والمثقّف اشتدّت قوّة الأمّة وتحقّق كيانها المتميّز.

ولكى تستعيد الأمّة العربيّة كيانها المتميّز ، ودورها الريادىّ الفاعل يجب أن يتسنّى لمثقّفيها حرّيّة فكريّة ، وممارسة عمليّة بعيدة عن القمع والإرهاب والتسلّط يستطيع معها المثقّف العربىّ إعلان رأيه وموقفه من الأحداث ومجرياتها بجرأة وصراحة ، بعيدًا عن التملّق الذى يفقده كرامته ويجعله واقفًا ويقف فى نقطة الوسط التى تمهره بصفة التذبذب ويكون أشبه بالمهرّج .

ولذلك تدعو الصباح المثقّفين العرب إلى الابتعاد عن هذه المواقف الساخرة ، والتمرّد على استلابهم الفكرىّ ، وإعلان موقفهم من القضايا الوطنيّة المصيريّة بصدق وحرّيّة ، لأنّ مواقفهم تفجّر الكمون المحتجب وراء نفوس الشعوب الهاجعة بألم تحت نير استسلامها : «لا يمكن للمثقّف العربىّ أن يقف فى نقطة الوسط بين الحرّيّة والعبوديّة وإلاّ تحوّل إلى لاعب سيرك» .

ومن المنطلق الفكرىّ الثقافىّ نفسه تطالب السعاد بصحافة حرّة ، ترفض التسوّل على أبواب الأنظمة ، وتزوير المواقف ، وتغيير الولاء ، وتتمرّد على تبعيّتها وذيليّتها لتبقى «محتفظةً بنقائها وشرفها وعذريّتها» .

ولم تكتف السعاد بدعوة العرب إلى التخلّص من التشرذم

والتجـزئة، ولا بحضّ المثقّـفين على النزوع إلى ثورة فكريّة تقلّب مفاهيم المثـقّف المهيمنة على إبداعه . بل تحثّـهم أيضًا على التنبّه إلى الخطر الخارجـيّ المحيط بهم ، هذا الخطر الذى يهـجم كذئبٍ يلبس لباس الحمل ، والذى كان السـبب الرئيس فى انقساماتنا ، وخـصومـاتنا وحروبنا ، والـذى كان فى الماضى إرهابًا دمـويًا ، واستعمـارًا جغرافيًا ، وهو اليوم يأتينا بشكلٍ آخر إنّه الاسـتعمار الاقتصاديّ والتاريخى والفكرى والحـضاريّ ، يظهر الإفادة ولعابه يسـيل على ممتلكاتنا الطبـيعـيّة والفكريّة ، فـيطّلع على قضـايانا بدقائقها وتفاصيلها فى محاولة لتغـيير جسد الأمّة إلى مجموعاتٍ صغيرة تتبع كلّ منها دولة لخدمة المصالح ، هذه المصالح التى ترى فيها المجموعات المشتّتة ربحًا كـبيرًا ، ولكنها فـى حقيقتها ما هى إلاّ عظمة تلقى ، أو لعبـة للتسلية فى وقت تبقى الدول المستـفيدة من ثرواتهـا متيـقّظة للحصـول على الأرباح والثروات الطبـيعـيّة والبـشريّة ، ولذلك تشـترط على العـرب إذا أرادوا الحفـاظ على أمّتـهم أن «يبقوا دائمًـا حذرين ، ومتـحفّزين وأن يحـاولوا قدر الإمكان أن يعتمدوا على جهدهم الذاتيّ ، وتجميع قواهم المشتّة ، ومواردهم الكبيرة، وطاقاتهم البشريّة الهائلة » .

بهذه الرؤيا تعـتبـر إسرائيل قنبلة موقـوتة فى خاصـرة العالم العربيّ ، ووجـودها يجب أن يدفع بالعرب إلى الكثيـر من الحذر

والدقّة ، وتحسين الوحدة ، والتمسّك بالأصل والجذر ، وبالعمل على معرفة ما وراء القشور، والتحقّق من كيفيّة مجريات الأحداث في العمق ، بعيدًا عن التلهيّ بالسطحيّ والمرئيّ ، لأنّ ما يحاك في الخفاء ، وما يخطط وراء أقنعة من الدهاء السياسيّ هو وراء الأشكال السياسيّة والوطنيّة والثقافيّة التي نشاهدها على مسرح الساحة العربيّة ، تقول :

«إن إسرائيل هي لغم موقوت مزروعٌ تحت أي قضية عربيّة ، وهذا ما يدفعنا إلى الحذر والحيطة ، وإلى مراقبة تحركات المياه الجوفيّة تحت الأرض العربية» .

ولم تنس أن تحرِّض الشعب العربيّ على الوجود الإسرائيليّ بخطابٍ يحمل في خلجات حروفه الرفض والتمرُّد والثورة ، بالإضافة إلى صرخة عربيّة لتوقظ العرب على أصالتهم ليقارنوها بأصالة الشعب الإسرائيليّ غير الموجودة ، فتتحقّق فائدتان أوّلاهما التمسّك بالأصل العربيّ والاعتزاز به، ومعرفة حقيقة العدوّ لأنّ المعادلة العلميّة تقضي بالتعرّف إلى حقيقة العدوّ لاكتشاف نقاط ضعفه والتعامل معه على أساسها .

تنبّه الأديبة إلى وجود إسرائيل واستمرارها وتراه تدبيرًا أمريكيًّا عمل على تجميع الشتات الإسرائيليّ المتعدّد القوميّات لتبقى في قلب الأمّة العربيّة فتنة دائمة يسهل من خلالها اختراق

قدرات العرب وطاقاتهم ليبقوا متشرذمين . ومهمّة العرب تقضي بأن يتسلّحوا بالرفض ، والأصل لينتصروا على كلّ ما يخطّط لهم وذلك إيمانًا منها بأن الدائرة تدور على الباغي ، ولابدّ من أن يأتي فجر يوم جديد تشهد فيه بلادنا يقظتها العربيّة الواحدة والسلميّة فتعلن باسم العرب التحدّي لإسرائيل وأمريكا:

أجّجوا الحقد أيّها الأشقياء

لم تمت في عروقنا الكبرياء

من حنايا عروبتي رضع المجد

وكان العلا ، وهان الفداء .

إنّ الرفض في شعر الصباح يؤسّس لدعوة عربيّة قوامها تحدّي أبناء العروبة المتسلّحين بالحبّ والتآخي ، ليوقظوا ما هجع في الذاكرة من قيم وأعراف أصيلة حيّة ، ويثبتوا أنّنا شعب ككلّ شعوب الأرض ، نبت متفاوت الأنواع والأشكال ، ومختلف الأريج ، ولكن إذا ما توحّدت الجهود بطاقات الحبّ وقدراته ، تولّدت فينا قوّة لا تقهر تردّ جحافل الغزاة وهجمات التخاذل والانحطاط ، فنحافظ على كرامتنا ، ونخرج من المنفى الزمنيّ المستقرّ في الأذهان والوجدان والضمائر ، وننفض عنّا خوف المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن الغرب لأنّنا بالسعي نختزل التباعد

ونسعى لنكون جزءًا من إيقاع العصر ومتطلّبات النظام العالمى الجديد ، تقول فى كتابها صقر الخليج :

«إنّ التحوّلات التى طرأت على العالم خلال العقد الأخير سياسيًا ، وإيديولوجيًا ، واقتصاديًا ، وثقافيًا ، تدفعنا إلى الخروج من تقوقعنا وأفكارنا السابقة ، وخوفنا المزمن ، لنصبح جزءًا من إيقاع العصر ومتطلّبات النظام العالمىّ الجديد» .

والنهوض من الواقع وتجاوز قيوده يتمّ بالعمل على تأسيس واقع أشمل وأعمق وأغنى ، وبالجهد يتحوّل مجتمعنا المنعوت بالنامى إلى مجتمع منتج يعتنى بحصاده الفكرىّ ، ويعطى لبعده الثقافىّ دفق الفعل الحركىّ المتجدّد ، ويكون لهذه المجتمعات رقم عضويّة فاعل فى نادى التاريخ .

فنواكب ذلك الحضارة بجهد ذاتىّ ، وطاقات موحّدة بحذر واستعداد وإيمان ، ونثبت إرادتنا فى الحياة ، ويتأصّل فينا إيماننا العربىّ ، وعزّنا العربىّ وقدراتنا العربيّة غير المحدودة ، فنعمل معًا لخلق رؤىً مستقبليّة متجدّدة لأبنائنا تجمعهم تحت راية الوحدة العربيّة .

وبقاؤنا على مسرح الحركة العالميّة وفاعليّتنا عليه وبه ، مرتبطان بقدرتنا على تطويع مجتمعاتنا وحكوماتنا لتتبنّى القوانين والحقوق الإنسانيّة التى أوجدها المجتمع العربىّ لخدمة الإنسان

وسعادته ، واحترام حريّته ، وتحقيق العدالة والمساواة فلا يبقى وجود لأيّ نظام يقهر الإنسان ويستعبده ويحوله إلى فتافيت إنسان.

لقد بقى الأمل متوهّجًا فى نفس الصباح ، لم تشوّهه بشاعة الواقع، فالمستقبل فى نظرها يعد بوحدة الأحلام العربيّة يقودها مهديّ مارد خارج عن المألوف ، يعرّض صدره للحرية وجبينه للّطمة وينهض بالمتهاونين الذين عفّروا جباههم على أعتاب المماليك ويحمل إلى شعبنا السلام النفسىّ ، والحرّيّة والخصب ، ورؤى الولادة الجديدة .

* * * * *

الرؤية السياسية عند الشاعرة سعاد الصباح

أ. إسماعيل إسماعيل مروة

الرؤية السياسية عند الشاعرة سعاد الصباح

عندما يتناول الباحث الشعر الوطنى عند شاعر ما ، لابد من القيام بعمليتين فى وقت واحد :

١ - مسح الشعر السياسى الوطنى عند الشاعر ، وتحديد الدوافع التى حَدَت بالشاعر أن ينظم هذا الشعر ، وهذا المسح يحدد الغاية من الشعر الوطنى ، وسمّو الدافع إلى هذا النوع من النظم الذى لا يقبل أى نوع من أنواع المجاملة . .

٢ - تحديد الأبعاد التى ينطلق منها الشاعر وذلك بغاية الكشف عن الرؤية التى ينطلق منها الشاعر ، وإذا استطعنا أن نفعل ذلك ، خرجنا بتقويم لهذه التجربة الشعورية السامية ، وحدّدنا الرؤية التى تبرز العناصر الفكرية المكونة للشاعر ، فنخرج بتحديدات وموجهات قد تنطبق على الجغرافية ، وقد تفترق عن الجغرافية ، وفى الحالين نخرج بتصورات مختلفة.

والشعر الوطنى والقومى ، أو السياسى عند سعاد الصباح قد يكون مختلفًا عنه عند غيرها ، الأسباب أهمها يتمثل فى أنّ

شعـرها كله يتناول هموم الوطن ، وهل عـملية التـحرير الفكرى والاجتماعى للمرأة خصوصًا، وللإنسان العربى عمومًا تخرج عن إطار الهم السياسى والوطنى؟!

من المؤكد أن عـملية تحرير الإنسـان جزء لا يتجـزأ من تحرر الطون ، وأن النضال من أجل الإنسان والفكر هو نضال من أجل الوطن ، لكن العمليـة النقدية تحتـاج إلى الولوج فى خصوصـية النصوص الشعرية ، حتى لا تندرج النصوص تحت إطار التأويل، وحتـى لا نلجأ إلى لىّ عنق النص بغـاية إيجاد هذا المـوضوع أو ذلك ، خاصـة وأن الشاعرة تملك قـدرًا من الإحساس السـياسى المتفوق ، وجادت قـريحتها بقصائد مميزة على الصـعيدين القومى والسياسى ، تجعلنا قادرين على تحديد الرؤية السياسية التى تنطلق منها ، لتبعدها عن إطار العفوى غير المنظم فماذا عن هذه الرؤية؟ وماذا عن المؤثرات التى شكّلت هذه الرؤية الناضـجة ؟ وماذا عن حدود هذه الرؤية الجغرافية ؟

١ - الرؤية السـياسيـة عند الشاعـرة : تنطلق الشاعـرة من رؤية سياسية واضحة فى شعرها ، تجعل شعرها ينقسم إلى محاور عدة ، نرتبـها حسب تواريخهـا ، وهذا الترتيب يشكل لدينا رؤية واضـحـة عن فكر الشـاعـرة ، ورحـابة هـذا الفكر وانفتاحه:

البعد القومي :

ويتمثل في قصائد عديدة هي :

- عندما رحل ناصر ديوان أمنية ص ١٥
- أم الشهيد ديوان أمنية ص ١٢
- صيحة عربية ديوان أمنية ص ١٨
- من امرأة ناصرية ديوان فتافيت امرأة ص ١٣٣
- ديوان حوار الورد والبنادق
- السمكة تعود إلى بحرها ديوان خذني إلى حدود الشمس ص ٩٣
- السيمونية الرمادية ديوان خذني إلى حدود الشمس ص ١١٩
- بيروت كانت وردة ديوان خذني إلى حدود الشمس ص ١٢٩
- سمفونية الأرض ديوان خذني إلى حدود الشمس ص ١٤٧

الغضب السياسى :

- وصل السيف إلى الحلق ديوان فتافيت امرأة ص ١٥٥

البعد الوطنى :

ويتمثل فى قصائد عديدة ، متأججة متوترة هى :

- إن جسمى نخلة تشرب من بحر العرب ديوان فتافيت امرأة ص ١١٧
- وردة البحر ديوان فتافيت امرأة ص ١٤٣

وهاتان القصيدتان أعيدتا فى ديوان آخر بعد مأساة الكويت :

- إننى بنت الكويت ديوان برقيات عاجلة ص ٥

وهى القصيدة التى تحمل اسم (إن جسمى نخلة تشرب من بحر العرب)

- وردة البحر (منشورة بالاسم نفسه سابقًا ديوان برقيات عاجلة ص ١٣
- بطاقات من حبيبتى الكويت ديوان برقيات عاجلة ص ٢٥
- سوف نبقى غاضبين ديوان برقيات عاجلة ص ٣٧
- سيرحل المغول ديوان برقيات عاجلة ص ٤٧

- ثلاث برقيات إلى وطني ديوان برقيات عاجلة ص ٥٧
- من قتل الكويت ديوان برقيات عاجلة ص ٦٧
- نقوش على عباءة الكويت ديوان برقيات عاجلة ص ٨٥

٢ - المؤثرات التى شكلت هذه الرؤية السياسية: خضعت الرؤية السياسية عند الشاعرة لعدد من المؤثرات التى لابدّ أن تؤخذ بعين الاعتبار ، حتى لا يظن بأن هذه الرؤية نبتت من فراغ، وتتلخص هذه المؤثرات فى :

الوسط البيئى :

مما لا شك فيه أن الكويت كانت تربة صالحة لتشكل الرؤى الجديدة فقد تهيأ لها من المقومات ما لم يتهيأ لغيرها ، بسبب الانفتاح الثقافى الذى حذّر منه عدد من الأدباء الكويتيين .

والكويت كانت مسكنًا لعدد كبير من القوميين العرب ، الذين اختاروا الكويت إما للعمل أو للثقافة ، فأحدث هذا نوعًا من التفاعل الذى كان مفتقدًا فى كثير من البلدان ، ما جعل البيئة مستوعبة للأفكار القومية والعربية ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كان أدباء الكويت أيضًا من المشاركين الفاعلين فى هذه الأفكار، ومن ذلك ما رأيناه من أفكار الشاعر الكاتب خالد الفرج الذى يمثل مرحلة متقدمة من مراحل النضج الفكرى فى الكويت.

وفى دراسته الأكاديمية عن (التيار التجديدى فى الشعر الكويتى) يأتى الباحث سالم عباس خدادة على هذا الموضوع بطريقة لافتة عندما يتحدث تحت العنوان الرئيسى : الشعور الوطنى عن الوطن : «والوطن هنا هو الوطن العربى الذى يشمل فيما يشمل الكويت . . ففهد العسكر يتناول الجانب القومى فى شعره ، ويشير إلى الضعف والتفكك فى الصف العربى ، وإلى التخاذل الذى جرّ المصائب والويلات . . وكذلك يشير فى قصيدة إلى فلسطين ، ووعد بلفور ، باكيًا المجد الأمثل لهذه الأمة العظيمة . . وللعدوانى فى هذه المرحلة قصيدة تعدّ فريدة فى هذا المجال ، وهى بعنوان : نداء ، استخدم فيها الرمز الشفاف ، وحمّلها همومه القومية ، والقصيدة نشرت عام ١٩٤٩م ، أى بعد المسرحية التى مثلتها الأنظمة العربية فى ذلك الحين ، وما تضمنته من هزيمة مريرة ، وما ألت إليه هذه الهزيمة ، من نتائج متتابعة لصالح الأعداء .

هذا الإحساس العالى من فهد العسكر ، وأحمد العدوانى كمثالين لتلك المرحلة يؤكد خصوبة التربة الثقافية والأدبية فى الكويت لاستقبال وإنتاج الفكر ، والتفاعل معه ، وساعد على ذلك مساحة من الحرية الثقافية ، ووسائل الإعلام والثقافة المتاحة، ولابد لمثل هذه التربة من أن تكتنز خصوبة الفكر

لأجيال عديدة قادمة ، وهذا يتجاوب مع الفكر القومى الذى كان يهيمن على الحياة الفكرية والسياسية العربية ، والذى لم يكن منفصلاً عن حياة الأفراد العاديين ، فما بالنا بالأدباء ؟!

«السياسة بأبسط معانيها علاقة الفرد بالمجتمع من ناحية ، وعلاقته بالدولة من ناحية أخرى . إنها علاقة جدلية يتجلى خلالها التأثير المتبادل بين الأدب والسياسية . إذ من الطبيعى أن يتأثر الأدب ولاسيما فى مضمونه بالحياة السياسية ، وأن تنعكس تياراتها واتجاهاتها فى فنونه ، كما أنه من الطبيعى فى مقابل ذلك أن يؤثر الأدب - باعتباره نتاج فكر وشعور - فى نفوس أفراد المجتمع ، ويسهم فى بلورة نزعاتهم وتعميق وجدانهم الجماعي» إن هذا الشعور السائد هو الذي أسهم بصورة أو بأخرى في تعميق الوجدان الجمعي الجماعي في مرحلة من مراحل الأدب الحديث ، وهذا الشعور هو الذي وجد في أدباء الكويت تجاوبًا جيدًا في مرحلة مبكرة . .

ولابد من تلمّس الأسباب التى جعلت مثل هذا الشعور ينتعش في تربة الأدب الكويتي ، كما ينتعش في مختلف البقاع العربية على تفاوت هذا الانتعاش ، والذي وصل إلى مرحلة متقدمة في أبناء المهجر البعيدين، وقد مرّ أن فهد العسكر وأحمد العدواني تناولا في أشعارهما تجليات الهموم الومية ، وأريد هنا أن أركز على الأحداث الجسام التى أحاطت بالأمة :

«ولقد كانت الأحداث الجسام التى مرت بالوطن العربي من القوة بحيث لم يعد بوسع الأديب أن يكون بمعزل عنها . . ويرى (ويدرون) أن عناصر الخطوب والشقاء التى تنزل بالمجتمع ، وتسبب اضطرابه من العوامل التى تخلق في أعقابها الأدباء ، لأن الذين يعانونها أشدّ شعورًا بها من سواهم ، فهم ينسحبون بعد ذلك إلى تصويرها ورسم خطوطها . . والأحداث تجمع المشاعر والعواطف في الصدور ، والأدباء هم الذين يعبرون عنها لينفسوا عن النفوس عناءها . . » .

لذلك لا غرابة أن ونجد الشعر الكويتى يبحث عن فكر جمعى من عشرينيات هذا القرن ، وفي ذلك يقول أحد الباحثين:

«أما القضايا اليومية ، فإن الشعر الذي تناولها غزير ومتنوع . وقد يجدر أن ننوه أن القضية الفلسطينية شغلت الشعراء الكويتيين منذ وقت مبكر أي منذ عام ١٩٢٩م . كما أن الشعر الكويتي كان يرصد معظم الأحداث في الوطن العربي ، ويسجلها في حينها . ومن ثم فإنه لا يكاد حدث قومي يكون خارج إطار الشعر ، الذي قام شعراؤه بدور كبير في تنمية الوعي القومي ومساندة حركات النضال ضد الاستعمار في كافة أرجاء الوطن العربي . . » .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما حمله المبعثون الكويتيون الذين

توافدوا على الأقطار العربية للدراسة والتحصيل ، والذين استموا بالكثرة إلى أن تمّ افتتاح جامعة الكويت عام ١٩٩٦٩م فبدأت البعثات تنخفض ، ولكن بقى التواصل القومي العربي من خلال الذين قاموا على التدريس والمحاضرة في الجامعة ، إضافة لما قدّمته الصحافة ووسائل الإعلام الكويتية التي اتسمت في تلك المرحلة بتعمق الرؤية العربية الشمولية .

لابد لأى شاعر يعيش فى مثل هذا الوسط البيئى الذى يتبادل التأثر والتأثير مع الاخر من أن يتخذ وجهة يختارها من هذا الخضم الثقافي الواسع ، وسعاد الصباح التي عاشت في هذه المرحلة ، تأثرت في تكوينها الفكر بالفكر العربي ، القومي تأثرًا واضحًا سنراه عند تحليل شعرها القومي ، ورؤيتها السياسية القومية .

الوسط العائلى :

الشاعرة حظيت بمحيط عائلى عزّز لديها الإحساس القومي العروبي فزوجها الراحل الشيخ الجليل عبد الله مبارك إرتبط بوشائج قوية من المحيط العربي ، وذلك بدافع خاص منه لأنه كان عروبيًا حتى أدق التفاصيل ، وسيرته تنبئ عن ذلك وها هى الشاعرة تخط بقلمها سمات الشيخ القومية :

«ويتوقف الإنسان كثيرًا أمام مسار أسفار الشيخ عبد الله

ليكتشف أن عقل هذا الرجل وفؤاده قد إرتبطا بالعرب ، فخلافًا لآخرين ممن كانوا يسافرون كثيرًا إلى إيران والهند وباكستان ويقضون إجازاتهم فيها ، فإنه لم يسافر إليها قط ، وتركزت زياراته على العراق وسوريا ولبنان ومصر والسعودية وبلاد الخليج الأخرى» .

وتحدد الشاعرة مصادر تفكير الشيخ عبد الله مبارك العربية بقولها :

«تأثره بوالده ، ومنها أصدقاؤه في البلاد العربية ، وبالذات لبنان الذي كان معقلاً للفكر العربي في الأربعينات والخمسينات» .

والشيخ عبد الله مبارك لا يعتمد على الأقوال وحسب ، بل إنه يقرن القولَ الفعلَ في تفكيره العروبي :

«كان الشيخ عبد الله مبارك يؤكد على الإنتماء للعروبة ، لم يكن ذلك قولاً لفظيًا أو مجرد شعار وحسب ، بل قرن القول بالفعل ، فدعم مواقف الأشقاء العرب ، سياسيًا وإقتصاديًا . فكان له - مثلاً - السبق في الدعوة للإكتتاب لتسليح الجيشين المصرى والسورى ، وقام بإلغاء تأشيرات الدخول للكويت بالنسبة للعرب» .

وأقواله عن العروبة ليست بسيطة ، وأفعاله محمودة

ومذكورة، ومواقفه السياسية العروبية أخطر من أى شيء آخر ، خاصة لمن هو في موقع الحكم فى بلد يقع تحت السيطرة الإستعمارية ؟

ومن مواقفه التى تؤكد توجهاته القومية :

«وفى مناسبة مرور عام على الوحدة المصرية - السورية فى فبراير من عام ١٩٥٩م ، ألقى الشيخ كلمة بثتها إذاعة الكويت ، ذكر فيها أن إقامة الجمهورية العربية المتحدة هى حدث تاريخى عظيم فى حياة الأمة العربية التى تكافح من أجل وحدتها ، وطلب من أئمة المساجد الدعاء للوحدة العربية ، وأعلن اليوم التالى إجازة رسمية ، عُطلت فيها المصالح الحكومية. . . لذلك رفض مع الشيخ عبد الله السالم فكرة الإنضمام إلى الإتحاد الهاشمي» .

هذه ومضات بسيطة تبين أثر المحيط العائلي بالشاعرة ، فهى تعيش شريكة عمر مع الشيخ عبد الله مبارك ، الذى آمن بالقومية منطلقًا ، والذى حمل رؤية قومية واضحة ، ورؤيته هذه ليست إرتجالية وليست سياسية ، وليست تكتيكية ، وذلك لأن الشيخ بقى مؤمنًا بهذه القومية حى أخريات حياته ، وليس أدلّ على ذلك من خطاب الشاعرة له فى قصدة الرثاء (آخر السيوف) :

خذلوك ، يا شيخ العروبة ، عندما
جعلوا العروبة ، ملسخًا وقبورًا
ذبحوا الطموح الوحدوىً ، من الذى
يرضى بأن يتزوج السّاطورا !؟

الشاعـرة تدرك أن الطموح الوحدوى لدى الشـيخ من أشرف الغـايات، وإلا ما حـشدته أو حـشرته فى رثائه وهل تُعَـدّد على رأس الفقيد غير الأمانى المفتقدة أو المتحققة ؟!

والشاعرة عاشت معـه هذا الحلم العربي الوحدوي الجميل ، لكنها عـاشته على طريقـته العلمية الهـادئة، القائمة على الرغـبة والمساعي الحميـدة ، وليس على الصراعات العربية المتشـعبة قديمًا وحديـثًا ، عاشـت معـه هذا الحلم فى الكويت أولاً ، وفى حله وترحاله فى مخـتلف أصقاع العروبة ، وخاصـة فى مصر ولبنان حيث قضى الشيخ شطرًا غنيًا من حياته .

الإستعداد الشخصى :

الشـاعرة ولدت إذًا في بيـئة آخـذة فى التفـتح ، وشهـدت طفولتهـا نمو التيارات الفكرية المختلفة ، وعاشت مع الشـيخ عبد الله مبـارك ، الذى كان قـوميًـا وعربيًـا حتى النخـاع ، رأى فى الإنتماء العـربي غاية شريفة ، وفى التعاضـد العربى هدفًا ، وفى

الوحدة العربيـة حلمًا . . ولابدَّ ونحن نتحدث عـن الشاعرة من التعـريج على إستعـدادها الشخصى لتقـبل هذه الآراء السياسـية القائمـة على المواقف المبدئية للفـرد ذاته وليس بإمكان قوة مهـما كانت أن تفرضها ، ولا يمكن للفرد أن يتمثلها أو يمثلها إلى درجة تصبح معها سيرة حياة .

فكم من إنسان عاش فى بيئة فلم يأخذ منها شيئًا ؟!

وكم من إنسان شارك إنسانًا حياته وبقى على هامش حياته؟!

إذًا مهما كـانت المؤثرات الخارجية قوية ، فإنهـا ستتلاشى إن قابلت شخصًا غير قابل للتبادل والتأثر والتأثير .

والشاعـرة لم تخط حتى اللحظـة شيئًـا من تجربتـها ، أو مما يمكن أن تطلق عله تسمية السيرة الذاتية على غنى حياتها وتجربتها على الصعد كافة. ولذلك إذا أردنا أن نستشف السمات الشخصية لها ، فـلابد أن نقرأ ذلك فى أشـعارها ، وفى مقـالاتها ، وفى دراستها ، وفى حواراتها وفى سيرتها العلمية .

فالشاعرة التى إنطلقت فى منتـصف القرن إلى أروقة الحياة ، لم تركن إلى الدّعة والـهدوء ، بل إنها بدأت رحلة الإسـتكشاف والتعلُّم مبكرًا ، ثم ما لبثت أن إقتـرنت بالشيخ عبد الله مبارك ، فلم تعد من مسارات الحياة العلمية بل إنطلقت فيها إلى أبعد مدى بتشـجيع من الشيـخ عبد الله مـبارك ، وبمباركـة منه ، فدرست

الإقتصاد والتنمية ، ولا يخفى لما لهذا التخصص من صلة عميقة بالسياسة والمجتمع ، وهذا الإختيار بحدّ ذاته يمثل إستعدادًا فكريًا، وربغة في الإنخرافط في الأمور الفكرية والسياسية ، كما أنها عضو في منظمات عديدة ، وفي جلّها تحمل سمات الفكر الوحدوي أو العربي أو الإنساني .

هذه المؤثرات هي شكلت الشاعرة ، وربما شكلت الرؤية لديها ، والدراسات غالبًا ما تركيز على النص مهملة الجانب الشخصي ، مع أن الدراسات الحديثة - على وجه الخصوص - تركز تركيزًا واضحًا على دراسة اشاعر قبل شعره ، أو مع شعره على أقل تقدير ، لذلك يؤكد الباحثون على العلاقة بين النص والشاعر ، في تذوق الشعر :

«قد تكون القصيدة تعبيرًا عن عالم فشل صاحبه في أن يجده في الواقع ، فاستراح إلى أن يتوهمه في الشعر» .

فهل كان حلم سعاد الصباح الوحدوي في الشعر هروبًا من فشل الواقع في تحقيقه ؟ ربما . . . .

لابدّ لنا إذا وقبل الولوج في عالم شاعر ، أي شاعر ، من تحديد رؤيته أو رؤاه ، لأن معرفة الرؤية هي التي تمنحنا فرصة الوصول إلى الحكم النقدي ، بعيدًا عن المجازفات النقدية المجانية مدحًا أو قدحًا .

إن النظريات الحداثيـة تقوم على تحـديد هذه المفهومـات قبل دراسة النص ، حتـى إن كثيراً من النصوص الممـتازة ظُلمت لأن رؤى الشاعـر لا تتماشى مع رؤى النقـاد ، وكثيـراً من النصوص المتواضـعة حُـمّلت أكثـر مما تحمل لأن النقـاد أراد ذلك ، لإتفاق الرؤى مع الشاعـر ، ولو أردنا أن نطبق المعاييـر التى يراها بعض النقاد فى شعـرائهم - مع التأكيد على عودة الضمـير إلى النقاد - فكل ناقد يتملك عدداً من الشعراء لا يتجاوزهم خلال رحلته التى قد تكون طويلة .

أقول لو أردنا أن نطبق معايير الجودة التى يرونها فى عدد من الشـعراء المختـارين ، لوجـدنا أنهـا تناسب شـعراء آخـرين ، وضعوهم خارج الدائرة لسبب أو لآخر .

لهذا وجدتنى مندفعًا لدراسة المؤثرات والشـخصية قبل دخول عالم النص الشـعرى للتأكـيد على وجود رؤية مـتكاملة من تلك التي يدعو إليها النقاد الأكاديميون :

«لا يمكن أن ننتظر شـعراً جـديداً من شـاعر لم يكن جـديداً جدة حقيقية . وليس لهذه الجدة غير معنى أساسى واحد :

أن يمتلك رؤيا خاصة به ، تـختزل موقفـه الفكرى والجمالي من الحياة والشعـر والعالم ، رؤيا تجدده من الداخل ، وتجعل من

عمله الشعر ، أو مجموع كتاباته الشعرية ، وحدات متفاعلة داخل ساق رؤيوي متجانس ، شديد الفاعلية» .

ويحدد الناقد الذكتور العلاق سمات هذه الرؤية فى موضوع آخر :

«من خصائص الرؤية الشعرية ، أنها تمتد عبر أعمال الشعر المبدع كلها . فهى ليست دمعة ، أو قطرة من المطر بل نهر ، مترابط ، تتضفر أمواجه ، ويندغم بعضها ببعض . .» .

لا شك فى أنّ ما توصّل إليه الباحث الناقد يمثل مقياسًا من المقاييس الرؤيوية الشعرية ، وقد أجاد في تحديد ذلك ، فما توصل إليه يمكن أن نطبقه على الشاعر والحالة الشعرية للوصول إلى حكم نقدي ينسجم فيه المبدع مع إبداعه .

خلال الأبعاد التي حددت أشعار سعاد الصباح (القومية والمنطية والغضب السياسي) نحاول أن ندرس الرؤية الشعرية ، وصولاً إلى الرؤية السياسية للشاعرة ، وذلك بدراسة النصوص ذات الطابع السياسي ، بعد أن أطلعنا على شخصية شاعرة جديدة كل الجدّة فيما قدمت من رؤى ، ومن خلال الدراسة سنرى إن كانت هذه الرؤية آنية أم ممتدة، ، قطرة أم نهر . .

١ - البعد القومي في شعر سعاد الصباح :

تشكلت الرؤية القومية عند سعاد الصباح مبكرًا ، وعبّرت عنها في مجموعتها (أمنية) عندما رأت رمزًا من هذه الرموز يهوى، وهو جمال عبد الناصر ، والشاعرة في القصيدة تنقل صورة حية لما حدث بوفاته ، أو لما أحدثته وفاته .

مصر يا أمي ويا همّي ويا خير المهاد

لا تقولي : أسلم الناصر للموت القياد

بعد أن كان مني العُرب ، وآمال البلاد

لا تقولي : تعب الساهد من طول السهاد

وبعد هذه المناجاة الخاصة بين الوطن والإنسان ، تتناول حياة الرجل من زاوية الرؤية الوحدوية التي تحملها في فكرها .

(خير عتاد ، سقط الفارس ، سجا الحلم ، هوى الصرح ، كان لنا النبض ، علمنا ، يد فوق الزناد ، أنشودة حب ، أحدوثة خير ، وأسطورة مجد . .) .

وتزاوج الشاعرة هنا بين الماضي والحاضر بطريقة ناجحة لتصور مكانة الراحل في حياة العرب والمجتمعر آنذاك ، والعودة إلى المعاني التي اسبغتها الشاعرة على الراحل في المقطع الثاني ، نجد أن ناصر كان يمثل جزءًا من الرؤية القومية ، فهو القوة ،

والحزم ، وهو المعلم ، وهو المقاتل، وهو الحب ، وهو الحديث الخيّر ، وهو أسطورة المجد في زمانه، ومع أن الشاعرة تتحدث عن رحيل جمال عبد الناصر إلا أنها لم تلجأ إلى البكاء ، وإنما إلى تعداد الخصال التى يمتلكها هذا الرجل ، ومع أنها قدّمتها ضمن سياق أدب راق ، إلا أن اللافت للإنتباه محاولة الشاعرة أن تذكر ما يتحلى به هذا الرجل ، وأن تبرز ما فى وجدانها .

وإنطلاقًا من الرؤية السياسية التى تحملها الشاعرة ، عادت إلى سيرته التى عاشها ، ولكن ضمن إطار فنى شائق ، تحاور فيه التاريخ الذى يسجل الصفحات للأجيال القادمة ، وإذا تأملنا الأشياء التى تريد من التاريخ أن يرويها ، إستطعنا أن نستشف - وبوضوح - نهج الرشاد ، الوحدة الكبرى . . .) .

لتختم الشاعرة قصيدتها :

إروِ عنه أنه قرّب أيامَ الحصاد

لقيام الوحدة الكبرى وتحقيق المراد

سائرًا فى دربِ عمرو ، وطريق ابن زياد

فى هذه القصيدة تؤثر الشاعرة أن تقدم ترجمة للراحل تعدد فيها مناقبة ، من وجهة نظر تحملها هى ، والشيخ عبد الله مبارك من قبل ، وجيل من العرب على العموم ولجأت لتحقيق ذلك إلى :

- ذكر الأحداث الجسام التى قام عبد الناصر بالسيطرة عليها .
- ذكر الآمال العراض التى كان من المؤمّل إليها مسيرته .
- إستجلاب التاريخ ، بل تخيرت الشاعرة من التاريخ ما يناسب مواقفه الحياتية :

١ - **الفتنة الكبرى** : وهل ينسى تاريخنا الفتنة الكبرى التى إشتعلت ، ولم تنطفئ ؟ وها هى الشاعرة تستعير هذا التعبير، لتعبر به عن الواقع .

٢ - **عمرو** : فاتح مصر ، وقائد فتوحات من أهم فتوحات الإسلام .

٣ - **إبن زياد** : الذى عمل على نشر الإسلام خارج الحدود ، ولست أدرى إن كانت الشاعرة تريد في هذه الإشارة إلى إبن زياد أن تقرن بين نهاية الرجلين بعد حياة حافلة بالعمل من أجل المبدأ .

ومع أن اشعر لمح تكفى إشارته ، إلا أن القصيدة مليئة بالإشارات الكثيرة التى تحتاج إلى إيضاح ، خاصة بعد مرور سنوات على القصيدة ، فمع قرب العهد منها إلا أن كثيراً من الناس نسوا تفاصيل تلك المرحلة ، فما بالنا بالأجيال الجديدة التى لم تعشها ، خاصة بعد أن غطى النسيان بعض هذه الصفحات !

ولأن الشاعرة تمتلك الرؤية القومية الممتدة ، ولا تملك قطرة أو دمعة ، تأتى بعد ستة عشر عامًا ١٩٨٦ لتكتب قصيدة جديدة، أستطيع أن أقول عنها : إنها قصيدة رؤيوية ، تحمل سمات شعرية عالية ، إبتعدت عن مستوى قصائد الحدث والمناسبات ، وهذه القصيدة موجودة فى ديوان (فتافيت إمرأة) أقف عندها وقفة متأنية لأنها تمثل النموذج الواضح الناصع لرؤية الشاعرة ، وفكرها :

من إمرأة ناصرية . . إلى جمال عبد الناصر :

(١)

كنا كبارًا معه فى كتب الزمان
كنا خيولاً تُشعل الآفاق عنفوان
كان هو النسر الخرافىّ الذى يشيلنا
على جناحيه إلى شواطئ الأمانة
كان كبيرًا كالمسافات
مضيئًا كالمنارات
جديدًا كالنبوءات
عميق الصوتِ كالكهَان
وكان فى عينيه برق دائم

يشبه ما تقوله النيران للنيران

(٢)

كنا شموسًا معه

توزع الضوء على مساحة الأكوان

كنا جبالاً معه .. من حجر الصوّان

وكان يحمينا من الركوع والهوان

كنا نسمّى باسمه

إذا نسينا مرة أسماءَنا

كنا نناديه جميعًا ، يا أبى

إذا أضعنا مرةً آباءنا

فهو الذى أطلقنا من رقِّنا

وهو الذى حررَنا من خوفنا

وهو الذى

أيقظ فى أعماقنا الإنسان

(٣)

كان هو الأجمل في تاريخنا

والنخلة الأطول فى صحرائنا
كان هو الحلم الذى يورق فى أهدابنا
كان هو الشعر الذى يولد فى مثل البرق فى شفاهنا
كان بنا يطير فوق جغرافية المكان
مستهزئًا من هذه الحواجز المصطنعة
من هذه الممالك المخترعة
من هذه الملابس الضيقة المضحكة المرقعة
من هذه البيارق الباهتة الألوان

(٤)

كان على صورتنا
كنا على صورته
كان يرى التاريخ فى نظرتنا
كنا نرى المستقبل الجميل فى نظرته
جبهتنا مرفوعة
تستلهم الشموخ من جبهته
قبضتنا قوية

تستلهم القوة من قبضته
أولادنا قد رضعوا الحليب من ثورته
كان هو القوة فى أعماقنا
واللهب الأزرق فى أحداقنا
والريح ، والإعصار ، والطوفان

(٥)

كان هو المهدي فى خيالنا
وكان فى معطفه يخبئ الأمطار
وكان إذ ينفخ من مزماره
تتبعه الأشجار
وكان جبينه سنابل وحنطة
وفى رنين صوته ما يشبه الأذان
وكان فى قدرته أن يُطلع السنابل
ويجمع القبائل
ويستثير نخوة الفرسان
ويُرجع الملك إلى بيت بنى عدنان

(٦)

كان هو النجمة فى أسفارنا
والجملة الخضراء فى تراثنا
كان هو المسيح فى إعتقادنا
فهو الذى عمّدنا
وهو الذى وحدّنا
وهو الذى علّمنا
أن الشعوب تسجن السجان
وأنها حين تجوع ،
تأكل القضبان

(٧)

يا ناصر البعيد .. قد أوجعنا الغياب
نمدّ أيدينا إليك كلّما
حاصرنا الصقيع والضباب
نبحث عن عينيك فى الليل
ولا نمسك إلا الوهم والسراب

يا ناصر العظيم

أين أنت .. أين أنت

بعدك لا شعر ، ولا نثر ، ولا فكر ، ولا كتاب

بعدك نام السيف فى قرابه

واستنسر الذبابُ

(٨)

يا ناصر العظيم

هل تقرأ فى منفاك أخبار الوطن ؟

فبعضه مغتصب

وبعضه مؤجّر

وبعضه مقطّع

وبعضه مرقع

وبعضه مطبّع

وبعضه منغلق

وبعضه منفتح

وبعضه مسالم

وبعضه مستسلم

وبعضه ليس له سقف .. ولا أبواب

يا ناصر العظيم

لا تسأل عن الأعراب

فإنهم قد أتقنوا صناعة السباب

وواصلوا الحوار بالظفر وبالأنياب

وحاصروا شعوبهم بالنار والخراب

يا ناصر العظيم

سامحنى .. فما لدّى ما أقوله

فى زمن الخراب

١٩٨٦

- **العنوان** : يحتل مكانة مهمة فى القصيدة الحديثة ، ويشكل جزءًا مهمًا من القصيدة ، إذ لا تجد قصيدة حديثة بلا عنوان، بل إن إنقاد يذهبون إلى أن العنوان مفتاح للقصيدة ، ومدخل ضرورى إليها .

«عنوان القصيدة يشكل مدخلاً ضروريًا للنص : إنه تحديد لإتجاه القراءة ، ورسم لاحتمالات المعنى ، وقد سعى الشاعر

الحديث ، في أكثر الأحيان ، إلى أن يكون عنوان قصيدته تفسيريًا: يجسد القصيدة ، أو يختصر حكمتها . . . » .

والعنوان في هذه القصيدة يحقق أمورًا مجتمعة ، فهي أولاً وقبل أي شيء :

رسالة إلى بعيد ليس بإمكان الشاعرة أن تلتقيه وتحاوره ، لذلك عمدت إلى رسالة ، وهنا نتوقع شحنة عاطفية ووجدانية لا تتحملها إلا الرسائل .

والعنوان فيه نوع من الكشف وذلك يتعلق بالمُرسل والمستقبل، فالمرسل هو إمرأة تعتنق مبادئ الناصرية ، وتقول هذا الأمر علنًا دون مواربة ، والمستقبل هو صاحب هذا المبدأ ، وإن كان هذا يُدخلنا في العلاقة بين معتنَق المبدأ ، وصاحبه إلا أننا لا نقف عنده ، لأنه نوع من العلاق الجدلية التي تضفرها الشاعرة ببراعة لتهيء الجو المناسب للإغواء بالقرأة ، وقد إستاع العنوان أن يجسد معنى القصيدة ، وأن يختصر الحكمة منها بالفعل .

ولكن الشاعرة تفاجئنا في القصيدة ، إذ نجد أن العنوان جسّد المعنى ، لكن لم يختصر شيئًا ، فرسالتها إلى جمال عبد الناصر مفتوحة ، ويمكن أن ينضو تحتها أي شيء تريده هي ، لذلك نجد الشاعرة قسمت الخطاب في رسالتها إلى :

- الحديث عن الماضى ، وبضمر الغائب من ١ - ٦ وفيها تقوم بتعداد ما أعطى لأمته . حسب رأى الشاعرة -- وتصور حال الإنسان العربى فى ذلك الزمن ، وتسبغ الشاعرة على جمال عبد الناصر الصفات التى تراها فيه ، ودون أى مشكلة تعترض ، لأنها تتناول مرحلة منتهية ، وتستعمل ضمير الغائب الذى يساعد فى إخفاء المتلكم ، وفى هذه المقاطع لم تتحدث الشاعرة بلسانها فقط ، وإنما لجأت إلى الخطاب الجمعى ، فهى ناصرية الفكر ، ومن الطبيعى أن يأخذ مكانة مميزة فى فكرها ، لذلك جاءت إلى الضمائر الجمعية ، لتجعل نفسها متكلمة بلسان الجماعة والأمة ، ولا أحد يعترض هنا ، لأن الشاعر كون وحده . .

ومن الرؤية التى تلمسناها عند الشاعرة قوميًا نجد أن المعانى التى ركزت عليها الشاعرة قومية لا قطرية :

القومية - الحدود - جمع الشتات - القدرة على توحيد الكلمة ، إقناع الآخر - الواقع المجزأ - تقسيمات الوطن العربى . .

- وفي المقطعين ٧-٨ تختم القصيدة بالحديث إلى جمال عبد الناصر نفسه ، في مقطعين قصيرين ، لا يشكلان مساحة كبيرة من القصيدة، وللطول والقَصر هنا علة ، فهى تقف

وجهًا لوجه مع صاحب المباديء ، لذلك تختزل رهبة الموقف، وتطلق صرخات ألم متوالية عن الواقع العربي ، وترحل بسرعة متعللة بعدم قدرتها على الكلام والمجادلة ، وهذه الخاتمة بحد ذاتها تمثل نوعًا من التقدير والاحترام الأبوي للكبار فكرًا ومكانة . . ألا نعتقد أن الكبار يعرفون كل شيء؟!

وانسحاب الشاعرة هنا بهذه السرعة فيه نوع من التبجيل الذى مارسته في رسالتها الشعرية دون أن تتحدث عنه . .

أما عن المعاني التي حملتها القصيدة ، فقد يخالف بعض الناس رأي الشاعرة فيها ، وقد يوافقها بعضهم ، وهى من المعاني السامية الراقية ، والشاعرة هنا تريد من هذه الرسالة أن تفضح حالة التردّي العرب المزرية، فاختارت كلّ ما تراه من ضعف حالي، ووضعت له النقيض ، وأسبغته على المرحلة الناصرية - إن صح تعبير المرحلة .

والشاعرة تمارس كتابة رسالتها الشعرية والفكرية ، لذلك نجحت في عقد مقارنة جاءت لصالح جمال عبد الناصر ، بعد ستة عشر عامًا ، ورفعت الغطاء عن الساعة العاصية التى تمشى عكس العقارب !

والنجاح استمدته الشاعرة من حُسن اختيار الصفات ،

وجميع ما اختارته يتعلق بالسمات الشخصية لجمال ، وهذه السمات لا يختلف فيها حتى خصوم الرجل :

(العنفوان - الجديد - عمق الصوت - بريق العينين - يشبه النيران - تقمص اسمه - الشعور بأبوته - التحرر - الحلم - يستهزيء بالحواجز - الشبه الكبير بينه وبين الناس - شموخ في جبته - قوة قبضته - يجمع القبائل - الثورية - ازدهار الثقافة - التمزق العربي) .

وقد استحضرت الشاعرة مجموعة من الرموز المؤثرة التي تحمل دلالات كبيرة عند المثقف العربي ، والإنسان العربي العادي علي السواء ، فهو المهديّ المنتظر ، مع كل ما يحمله رمز المهدي من إنقاذ وتحرير وخلاص ، وأسبغت عليه الصفات التي تريد ، والتي تتناسب وسمات المهدي في حكايتنا) : (يخبيء في معطفه أمطار - تتبعه الأشجار - في جيوبه السنابل..) .

وتزاوج ببراعة بين سمات المهدي ، وسمات جمال عبد الناصر الشخصية : في رنين صوته - في قدرته - يجمع القبائل - يستثير نخوة الفرسان - يرجع الملك إلى بيت بني عدنان) .

وهو كذلك عند الشاعرة المسيح بما يحمله من ميزات واستعادت من المسيح ما يتناسب والسياق ، فهو الذي (عمدّنا) بمائه ، وهل ماء جمال عبد الناصر غير العروبة والآراء الوحدوية والثورة ؟

لذلك أتبعتها بالثورة على السجان ، ورفض الجوع والعبودية، وتكسير الحواجز . .

أما موضوع القصيدة فإنه متعدد ، وليس كما أوهمنا العنوان، فقد استدرجتنا الشاعرة بمهارة إلى بؤرة العنوان ، لتكسب موضوعها بمنتهى الحذق ، فهى لا تخاطب جمال عبد الناصر وحسب ، وهى لا ترثيه بعد أنفعلت ذلك قبل ستة عشر عامًا وإنما أرادت من القصيدة شيئًا آخر ، ومحرق القصيدة يتمثل في وصف التردّي العربي المزري «فى القصيدة الحديثة ، الموضوع ينفلت بقوة الرمز وشمولية الرؤيا ، من قيود الزمانية والمكانية ، وبذلك لا يعود التعامل معه أو تجسيده وصفًا محضًا أو محاكاة مجردة . بل يغدو الموضوع وشبكة احتضانه تجليًا رمزيًا مفتوحًا على دلالات ، فردية أو عامة ، يومية أو كيانية ، لا حصر لها».

وهذا ما تختم به الشاعرة قصيدتها :

سامحني فما لديَّ ما أقوله

في زمن الخراب

ولابد من أنهي حديثي عن هذه القصيدة بالتوقف عند تاريخ كتابة القصيدة ، وهو الذي ذُيّلت به في الديوان ١٩٨٦م للتواريخ أهمية كبرى في فهم القصيدة الحديثة ، وفي تحديد موضوعها ، والدافع إليها ، فعلى الرغم من أن الشاعرة عونت قصيدتها بـ :

(من امرأة ناصرية إلى جمال عبد الناصر) إلا أن هذا البيان الشعري ليس مجرد رسالة ، بل تجاوز ذلك ، والتاريخ دليل كبير على ذلك ، ترى لو كانت هذه القصيدة منظومة قبل هذا التاريخ، هل تحمل الرسالة الفكرية ذاتها ؟

من المؤكد أن الإجابة : لا ، فالقصيدة التى قالتها فى ناصر بعد وفاته مباشرة تحمل سمات مختلفة ، أما في هذه القصيدة (البيان العربي) فالأمر مختلف ، فالأمة متشظية ، ومتدابرة ، والقطيعة تحكمها ، والأعداء يهيمنون عليها ، والقوات المعادية تجتاح جميلة المدن (بيروت) . . هذا الوضع فجّر الرؤية الشعرية القومية عند سعاد الصباح ، فكانت القصيدة الرسالة ، وبما أن ناصر فى منفاه - على تعبير الشاعرة - فإن كل ما يتلقاها معنى بها ، وهى موجهة إليه .

وفي إطار الرؤية القومية ذاتها تقف قصيدة : (صيحة عربية). التي أطلقتها الشاعرة في وجه الصهاينة المحتلين ، وقد حمل العنوان هوية القصيدة أيضًا ، فكانت صيحة عربية تقدم فيها رؤيتها القومية ، وتزيدها عمقًا واتساعًا وأبعادًا ، وهى هنا تبتعد عن القصيدتين السابقتين في الهدف والسبب ، وإن اتفقت معهما في المضمون العروبي الخالص ، وهذه القصيدة المنبرية الخطابية تنقسم إلى وحدتين متداخلتين :

- الماضي والتراث والأصالة .
- الحاضر ، وشرذمة المعتدين .

وتعمد الشاعرة إلى الموازنة بين الماضي والحاضر ، بين أنا وهو ، بين نحن وهم ، وذلك بغية تعميق الفكرة القومية التى تعتنقها الشاعرة ، وهي تتوجه في هذه القصيدة إلى الملأ ، وقد كانت من قبلُ في القصيدتين السالفتين تتوجه إلى الفرد - جمال عبد الناصر - مع أن ذلك الفرد يحمل هوية جمعية جامعة .

تحشد الشاعرة مخزونها التراثي العظيم ، فتستحضر الأسماء الخالدة الباقية .

(فاطمة الزهراء - الخنساء - يعرب - صلاح الدين) .

ولكل اسم من هذه الأسماء مآثر لا تنسى ، ومكانة عند المتلقي ، ولعلّ ارتباط الشاعر المعاصر بالتراث أهم ما يميز قصيدته، خاصة إذا كان الاتكاء موفقًا ، وليس مجرد حشد لفظي لا يقدم فائدة تذكر .

الشاعرة تخيّرت من التراث بذكاء لا يجاري ، ففاطمة الزهراء ، تمثل للمسلم والعربي الأصل الطيب الكريم ، وهي بنت الرسول الأعظم ﷺ .

والخنساء تمثل الصبر والشجاعة والفصاحة والموقف ، وما

يجتمع لدى الخنساء قد لا يتوافر في عدد من النساء الأخريات ، واختيارها من بين النساء العربيات الأول ، ينم عن دقة ووعي ، خاصة إذا ما قارنا بين ما تمتلكه الشاعرة ، وما تمتلكه الخنساء العربية القديمة ، وهى بهذا جمعت بين الأصل الكريم والشخصية الاجتماعية والأدبية الفذة .

هذا على صعيد اختيار الشخصيات النسائية التراثية ، وعندما تخيرت من الرجال ، تخيرت بدقة دالة على عدم رغبتها في حشد الأسماء وحسب، بل على رغبتها في اصطفاء ما يناسب الموضوع المطروح ، فقد اختارات هنا : يعرب ، وصلاح الدين .

الأول : أصل ، والثانى محرر الفرع من العبودية لإعادته إلى الدوح الأصيل . .

تحدد الشاعرة أصولها وماهيتها وتراثها ، ثم تنتقل للحديث عن الآخر ، ومن أول الخطاب تحدد الشاعرة السبب الذي جعلها تتميز هذه الأسماء دون سواها :

هؤلاء الكرام قومي ، فقولوا

من همو قومكم ؟ ومن أين جاؤوا ؟

من أبوكم ؟ من أمكم ؟ من ذووكم ؟

أين تاريخكم وأين البناء ؟

وتستعير من التاريخ دلالتـه التي تُدين الآخر ، كما استعارت دلالاته التي تتحدث عنها وعن أجدادها ومنبتها :

خير أسلافكم ذرته السوافي
وطوته في تيهها سيناء
هكذا أدبروا فلم يبق منهم
بعد موسى .. فكلكم لقطاء

وقد لجأت الشاعرة هنا إلى المقابلة بين الحالين ، فالمجد يقابله الذل ، والأصالـة يقابلهـا الضياع وتحـقيق الذات يـقابله التـيه ، والإقدام يقـابله الإدبار . . فحـققت من خـلال هذه المقابلـة نوعًا متقدمًا من الإقناع .

وتعرّج الشاعـرة في خطابها الشعري على العـلاقة التى تربط بين الصهاينة وأمريكا - مع ملاحظة أن القصيدة تنتمي إلى المرحلة الشعرية الأولى عـند الشاعرة - وهذا الربط ليس لتسـويغ العجز حيالهم وحسب ، بل لعقد مقاربة تاريخية معاصرة .

غير أنّ الرحى تدور على الباغي
وبعد الصباح يأتى المساءُ
انظروا ما يصيبها في فيتنامَ

تروا كيف يصمُد الضعفاءْ
وانظروا السود جائعين .. ولكن
هم بتأييد ربهم أقوياءُ

إنها تستفيد من التاريخ بشقيه الحديث والقديم ، وبما أن للعرب واليهود على السواء تاريخًا قديمًا يمكن أن تعقد مقارنة من خلاله فقد فعلت، لكن أمريكا الحديثة لا تاريخ لها ، فاختارت التاريخ الحديث لتسخر من هذا الحامي الذي تستند إليه إسرائيل آخذة من ذلك مثالين اثنين :

- فيتنام ، وثورتها للتحرير ، وما فعلته بأمريكا .
- السّود ، وبحثهم عن الحرية وسبل العيش .

وهذا يُحسب للشاعرة فى خطابها السياسي القومي ، الذي يطّلع على الثورات التحررية في العالم حينًا ، ويساندها حينًا آخر، ويفرح لانتصارها في كل الأوقات ، وقد أضاف هذا الاطلاع على الحديث المعاصر إطلالة مهمة رفعت سوية الخطاب الشعري ، وجعلته في مرتبة عالية من الأيديولوجية الفكرية ، كما أنها عمّقت الرؤية عند الشاعرة ، وحافظت على التوجه الثوري العروبي ، الذي لم يكن طفرة طارئة .

ومن هذه الرؤية الثورية انبثقت خاتمة القصيدة المتفائلة حينذاك :

أصدقائى ، من كل أرض ولون
نحن للثأر ، أيها الأصدقاء
اشهدوا ما تخطه يد أمريكا
وتلك الربيبة النكراء
واشهدوا أننا سنثأر لله
ولله كم يهون الفداء
ويباهي بنا النبي ، ويرضى
البيتُ عنا والقبة الغراء
وتعودين يا حبيبة ، يا قدسُ
ويرضى المسيح والعذراء
ولنا ناصر من الله .. إن الله
يجزي بنصره من يشاء

أما قصيدة (أم الشهيد) فقد حملت الروح القومية ، دون أي اعتماد على الخطاب السياسي ، وقد تصلح لحالات كثيرة مماثلة إذا استثنينا الإشارة الأخيرة : (أرض المعاد) . وهذه الإشارة هي التي سلكت القصيدة في إطار المنظور القومي ، وفي رؤية الشاعرة العربية ، النابعة من إحساسها الأمومي تجاه كل الأمهات العربيات اللاتي يدافعن بفلذات أكبادهن عن الأوطان :

وقبّلوا المدفع يثأر لكم
ولا تبالوا بالليالي الشداد
حتى تعود الأرض صفواً لنا
ويرجع الكوخ ، ويحلو الرقاد
ويسمع الليل أغاريدنا
في ملتقانا في ليالي الحصاد
ويفرح الله بنا عندما
تزول أسطورة أرض المعاد

وحتى تصل الشاعـرة إلى الوصية العربيـة ، تقدم لنا الصورة المثلى لأم الشهيد ، تبدأ من الـوصف الخارجي لأم تعاني من فقد ولدها ، ومع أن القصيدة كـتبت في حماة الحمية العـربية للجهاد والقتال : إلا أن الأم قدّمت رؤية إنسانية منطقية في تصوير الأم، فـهى ليست كـما تصـورها الأدبيـات عادة ، تزغـرد ، تهلل ، تفرح . .

إنها عند الشاعرة إنسانة من لحم ودم ، ليست ملكًا تحب ابنها وتتعلق به ويؤسفـها فراق ابنها ، تكو فقـد ابنها إلى الله ، وبهذا قاربت الشاعـرة الواقع ، ولمست العواطف البشريـة الإنسانية في مرحلة كان الأدب يصور الشهيد وأمه بشيء من المبالغة .

رأيتها ملتفة بالسواد

في وجهها ملحمة من حداد

مقروحة الجفن على فلذة

من كبدها الحرى طواها الرماد

تشكو إلى الله جراحاتها

بآهة تخلع قلب الجماد

(السواد - الحداد - مقروحة - كبدها الحرى - تشكو - آهة) .

في أبيات قليلة صوّرت أعمق مشاعر الحزن عند أم فقدت ابنها الذي هوى ليلة العيد ، وبعد هذه الأبيات التصويرية المؤثرة في القاريء تعود الشاعرة إلى الوصية ، وفداء الوطن ، وتحرير الأرض من الأعداء ، وإلغاء أسطورة أرض المعاد في فلسطين المحتلة .

تتميز نبرة قصيدة (أم الشهيد) بالهدوء والموضوعية في مناقشة فكر أم، أو فكر امرأة في قضية الشهادة والفداء والوطن ، وهذا الهدوء منح القصيدة أبعادًا ورؤى إضافية بعيدًا عن الحمية والخطابية والقرقعة التي توصف به المشاعر في مثل هذه الحالات ، وكان للموقف الذي اختارته الشاعرة أثر ، فهي امرأة وأم ، وهذا هدأ من خطابيتها ، وهي تتوقف عند الأم ، وليس عند الأب أو

الأخ ، واختيارهـا هذا منحها فرصة أخرى لتنقل لنا فـي حروفها نبض أم ملتاعة على ولدها ، حزينة لفراقه .

حوار الورد والبنادق : تُعَـدّ مجموعـة (حوار الورد والبنادق) الصـادرة عن دار رياض نجيـب الريس عـام ١٩٨٩م من أكـثـر مجمـوعات الشاعـرة إشكالية ، ذلك لأنها ترتبط بصورة مـغايرة لمجموعاتها الأخرى بثلاث مراحل :

- مرحلة ما قبل المجموعة .
- مرحلة كتابة المجموعة .
- مرحلة ما بعد المجموعة .

أما مرحلة ما قـبل كتابة المجموعة ، فـهى مرحلة هامة ليس بإمكان المتابع إهمالها ، خـاصة من زاوية النقد الذي يهتم بالنص وصاحبه وظروفه، تلك المرحلة تتعلق بظروف الحرب ، والأسباب التي دعت إليها، وهذه الظروف يخـتلف الناس في رؤيتهم لها ، خاصة من خلال استعراض السير الحياتية والتاريخية للمعنين بها .

وتأتى المرحلة الأهم في نقـد هذه المجمـوعة ، وهي مـرحلة تدوينها وكتـابتها ، وهى الفترة التى تمـتد من بداية حرب الخليج الأولى - كما اصطلح على تسميـتها - وحتى نهاية هذه الحرب ، التى اختلف الناس في تقويمها ، فهم لم ينقـسموا فريقي : مؤيد ومعارض وحسب ، بل إن هذين الفريقين انقـسما أيضًا ، وصرنا

نجد تبادل الأدوار ، وصرنا نرى التأييد المشروط أحيانًا ، ونرى المعارضة المشروطة أيضًا ، لكن الخطوط العريضة بقيت هى هى . .

والذي يهمنا في هذه الآراء موقف الشاعرة ذاتها ، فالشاعرة كما لمسنا ذلك من أشعارها ، تنطلق منه رؤية قومية ثابتة غير متحولة ، تؤمن بما هو عربي ، تُبهر بما يحثل القوة ، والعنفوان، إن كان ينتمي إلى قومها .

ومن هذه الرؤية الممتدة في شعر الشاعرة وفكرها ، جاءت قصائدها في هذه المجموعة ذات الموضوع الواحد ، وهذا الموقف يقودنا إلى مجموعة من الملاحظات :

- موقف الشاعرة مبدئى ، وليس آنيًا .
- موقف الشاعرة من قضية ، وليس من حدث .
- موقف الشاعرة تمجيدى ، وليس مدحيًا .
- موقف الشاعرة يتناول الساحة ، ولم يتناول الأشخاص.

والإشكالية التي تطرح نفسها هنا - في مرحلة الكتابة - تتمثل في اتجاهين :

الاتجاه الأول ، وهو من البساطة بمكان ، بحيث بإمكانك أن تدحضه بالصمت ، وذلك هو ادّعاء عدد كبير من الناس أن

الشاعـــرة لجـأت إلى تمجيـد الشخص في المجـموعـة ، وأنها قالت قصائد مدحية في شخص ما . .

والطريف في أمـر هذا الاتجـاه أنه ينجم عن نفـر لم يطلعـوا على المجموعة ، ولم يقرؤوا ما جـاء فيها من أشعار ، وأذكر أنه قبل أن أطّلع على المجموعة حـدثني عدد من هؤلاء عن مدحيات الشاعرة ، وكنت كلما طلبت النص لقراءته ، يأتيني الجواب :

النص ليس بين يدي ، وعندما يأتيني سأطلعك عليه .

تفـاجأ بأن هذا الـقاريء لم يقـرأ ! ولم يطلع ! وإنما سـمع فقط .

هذا النقـد المجاني غـيـر المطلّع بإمكانك أن ترد عليـه بطلب النص الذي يتـحـدث عنه فقط . . ومن حـسن الحظ أن الذائقـة الشعـرية متـدنية في زماننـا، وإلاّ نظم قصيـدة ونسبـها إلى هذا الشاعر أو ذاك . . !

الإتجـاه الثـاني ، وهو الذي يحـمل بـعض الخطورة ، وهو الصادر عن أناس قـرؤوا ، وأطّلعوا ، واستـخلصوا ، والخطورة تكمن في قدرة هؤلاء على التأويل فـعلى الرغم من أن المجموعة لا تحمل السـمة الفـردية من قريب أو بعيـد ، إلا أنهم يتبـرعون بوضع خط تحـت هذه الجـملة ، أو تلـك الكلمـة، ويقـومـون بتفسيرها كما يريدون .

ومن يملك القدرة على مصادرة قراءة إنسان ؟

ومن يقدر على كبح جماح الخيال والتخيل ؟

إضافة إلى أن عدداً من هؤلاء ينطلق من موقف ذاتي من الشاعرة ، أو من الحدث .

وإشكالية ما بعد الكتابة ، فهى غير متوقعة ، ولم تكن لتدخل في حسبان الشاعرة ، أو أى إنسان ، لكن وقد حدث ما حدث بعد مرحلة الكتابة ، فقد اختفت كل أنواع المؤازرة الفكرية والمادية والمعنوية التي كان يقوم بها الآخرون ، وبقيت النصوص الأدبية للشعراء والأدباء ، ومن هؤلاء الشاعرة سعاد الصباح - مع ملاحظة أنها الأقل اندفاعًا لو أتيح لك أن تطلع وتحاور هؤلاء. - لكن ولأنها سعاد الصباح حياةً وفكرًا عانت أكثر من غيرها من إشكالية ما بعد الكتابة ، وتلقت اتهامات كثيرة ، وكثرت التأويلات والتفسيرات ، حتى إنها تعرضت لهذه الاستفسارات في كل مكان ، في الإعلام والحياة . .

ومما يحمد للشاعرة أنها لم تتبرأ من مجموعتها هذه ، ولم تتخل عن رؤيتها القومية العروبية ، وعندما أردت أن أعرض لهذه المجموعة وضعت في حسباني أن أقرأها انطلاقًا من :

- رؤية الشاعرة الفكرية .
- النص وما يحتويه ، دون تحميل للنص فوق ما يحتمل .

● السياق التاريخي للنص الشعري .

فالشاعرة وقبل كل شيء تنطلق من رؤية ثابتة غير متأرجحة، لا تقبل التغيّر بين لحظة وأخرى ، وها هى تجد بارقة تتجاوب مع رؤيتها ، فلابد أن تتجاوب مع هذه البارقة ، ولكن من خلال القضية ، وليس من خلال الأشخاص ، الشاعرة عالجت قضيتها الشعرية ببساطة متناهية ، مازجة بين رؤيتها الأنثوية الشفافة والواقع المدميّ ، وتناولت في قصائدها الأرض على براحتها ، فهى تارة مع الجندي في أرض المعركة ، وثانية مع أم بسيطة بين البيوت الشامخة ، وأخرى مع فتاة تجهز نفسها لعرسها ، ورابعة تخلص فيها لعرض مجموعة أفكارها ورؤاها ، وإن كان ثمة اعتراض فيمكن ذلك من المبالغة في جلد الذات ، لتصوير ما يقوم به الآخر ، وحتى هذا الجَلد، والتقريع يمكن أن يُلقي على عاتق الشعر وجنونه وثورته .

وجاءت مأساة الكويت فيما يسمى بـ (حرب الخليج الثانية) فوقعت هذه النصوص تحت وطأة الإشكالية ، شأنها في ذلك شأن النصوص التى صدرت عن أدباء كويتيين أو خليجيين آخرين، وصار الشاعر يحاكم بمبدأ ما بعد . . وهذا فيه الجور الكبير ، وإن طبقناه فماذا سيكون موقفنا من مدح المتنبي ثم عتابه أو هجائه ؟

وماذا سيكون موقفنا من رثاء حافظ إبراهيم لملكة بريطانية وهي الدولة المحتلة ؟ وماذا سيكون موقفنا من قصائد شوقي في الإنكليزية والأتراك والفرنسيين ؟

وماذا سيكون موقفنا من جبران وتوجهه إلى فرنسا ، وهي التي تحتل سورية ولبنان ؟ أم أننا ننسى تلك المواقف ، لأنها مع الأعداء جملة وتفصيلاً وندين المتنبي ، ونعدّه شاعرًا مستجديًا متقلبًا ؟ وندين سعاد الصباح لأنها لم تكتشف الحقيقة قبل أن تقع بسنوات ؟

ولبيروت متسع من الشعر عند سعاد الصباح ، وعلى الرغم من أن الشاعرة تتحدث عن بيروت المدينة ، بيروت الذكري ، بيروت الماضي الجميل ، والحاضر المتعب ، إلا أنها جعلت من بيروت مفتاحًا سحريًا تعبر من خلال بابه إلى الحدود غير المرئية للمدينة العربية المعاصرة ، وللهمّ العربي ، وللدمار العربي ، فكانت عندها بيروت كل الأشياء الجميلة التي تنتمي إلى الزمن الجميل زمن الستينات .

والجميع يعرف ماذا يعني زمن الستينيات عند المثقف العربي عامة ، فكيف إن كان هذا المثقف عروبيًا في نظرته وتفكيره ؟

خصت الشاعرة مدينة بيروت اثنتين هما : (السمكة تعود إلى بحرها) و (بيروت كانت وردة . . وأصبحت قضية) في ديوانها :

(خذني إلى حدود الشمس) . ومع أن البادي للقاريء أول وهلة أن القصيدتين ذاتيتان ، تقدم الشاعرة فيهما نفثات روحانية لأيام مضت إلا أن المتمعنة تسلك هاتين القصيدتين سلك الإحساس القومي عند الشاعرة . .

أليس إحساس الإنسان بالآخر ، ولو من قبيل التعاطف مشاركة ؟

لماذا تتألم الشاعرة لما آلت إليه بيروت ، إن كانت بيروت مجرد محطة أو مدينة ؟

ترى ماذا قدّمت المدينة لهذه الشاعرة ؟

(السمكة تعود إلى بحرها) العنوان بحد ذاته يمثل قضية في القصيدة، فمع أنه جملة مكتملة تنبئ عمّا في داخل القصيدة ، وتساعد القاريء على تشكيل صورة لما سيقرأه ، إلا أنه في الوقت نفسه يعد مفتاحًا مهمًا لفهم القصيدة ، ولمعرفة تواصل الشاعرة مع هذه المدينة المميزة فمن أي بحر خرجت السمكة ؟ وإلى أي بحر تنتمي هذه السمكة .

إنها سعاد الصباح التي تعود إلى بيروت ، وعندما أعادت الضمير في العنوان إلى السمكة ، خصّت نفسها بهذا البحر ، وانتمت إليه ، فهو بحرها الأول ، والعودة انتماء جديد فمن هذا البحر كان الانطلاق ، وإليه كانت العودة ، ونتفهم ذلك من

خلال القوانين الطبيعية التي تقرر أن السمك لا يمكن أن يعيش خارج بحره . . وكذلك تقرر الشاعرة أن تعود:

ها أنذا أمام بحر بيروت
لأستعيد صداقتي مع الطيور والأسماك
وحواري مع اللون الأزرق
بعدما أرهقني العطش
ودوختني المسافات
وحاصرني الزمن اليابس

والإنتماء عند شاعرة كسعاد الصباح ، ليس انتماءً لمدينة وحسب ، بل هو انتماء لعدة أشياء دفعة واحدة ؛ انتماد لأرض تشعرها امتدادًا طبيعيًا لحيّزها الجغرافي والمكاني ، انتماء الامتلاك الفكري الذي لا يؤمن بالحواجز المصطنعة ، فمن حق السمكة أن تنتقل حيث تشاء ، وانتماء الحب والشعر والديمقراطية .

ليس صحيحًا
أنّ بيروت يحدها البحر من الشرق
والجبال من الغرب
إنها مدينة لا نهايات لها

تمامًا كالحلم والشعر والحرية

ليس صحيحًا

أنّ بيروت هي إحدى قصائد البحر الأبيض المتوسط

بيروت هي الشعر كله

ولا تقتصر مهمة بيروت على قضايا محددة عند الشاعرة ، فهي تاريخ وذاكرة لديها ، وهي امتداد لجغرافية البلد ، ومن هنا بدأت الشاعرة تنتقل كفراشة بين الأماكن لتؤكد علاقتها بها ، ولتجلو لنا مسح شعرها وحياتها، حيث لم تتردد بشيء ، ولم تتوجس خيفة من شيء ، وفي بيروت عرفت الشاعرة أمومتها ، فكان للمكان أن أخرجها بصورة جديدة:

بعد عام على وصولي إلى موطن القمر

بدأت أكتب شعرًا

على دفتر القمر

وبدأت أتعلم لغة العصافير في (زحلة)

ولغة الصنبور في (ضهور الشوير)

ولغة الثلج في جبل (صنين)

ولغة البحر في صوت فيروز

وفي مدينة (عالية)

وبين كروم العنب وأشجار الكرز

وأزهار الدفلي

أنجبت أحلى قصائدي (مبارك)

وهكذا أعطاني لبنان شهادتين أفتخر بهما

شهادة الحياة

وشهادة الأمومة

ولأن الشاعرة هنا لا تريد الحديث عن ذكرياتها فقط ، ولأن بيروت تعني لها أشياء كثيرة ، وانطلاقًا من رؤيتها الفكرية القومية، التي تتألم لألم أى مكان من الأرض العربية ، وتصرخ لأى مصيبة تهز بقعة عربية، انتقلت في قصيدتها للحديث عن بيروت الحاضر ، والألم يعتصر فؤادها والأمل يدفعها إلى أن تتفاءل بالمستقبل .

لم تستطع الحرب

أن تُسكت صوت جبران

أو صوت إلياس أبي شبكة

أو صوت الأخطل الصغير

ربما استطاعت الحرب أن تحرق الحجر
والأسمنت
وأن تطفيء قناديل الشوارع
ولكنها بالتأكيد لم تستطع أن تطفيء حضارة
صيدون وصور
أو تمنع قدموس من الإبحار إلى المستحيل .

*

سبعة عشر عامًا .. مرت على حريق بيروت
ولا تزال أكبر من موتها
وأكبر ممن دمّروها .. وأحرقوها ..
سبعة عشر عامًا تحت ألسنة اللهيب
ولا تزال تتوهج تحت الرماد
كسبيكة الذهب

ولابد من الإشارة هنا بالموقف الفكري الواعي للشاعرة ، فهي على الرغم من وجهتها العروبية ، إلا أنها تقف مع الإرث الحضاري لبلد أحبته وقفة قلّما نجدها عند أصحاب الرؤى ، لأن أغلبهم لا يؤمن إلا بذاته !

وفي قصيدتها (بيروت كانت وردة . . وأصبحت قضية) تغوص الشاعرة إلى الأعماق في بحر بيروت ، وتظهر أوجاعها باحثة عن الدواء الناجع ، وإذا ما تجاوزنا حديث الذكريات الموجع، أو أنين الذكريات ، وهو ما حفلت به قصيدتها (السمكة تعود إلى بحرها) ، نجد الشاعرة تتفجر براكين غضب وطني وقومي وسياسي :

آتى من الكويت
مثل نخلة متعبة تريد أن تنام
أتى إلى البيت الذي من خبزه أطعمني
أتى إلى الثدى الذي أرضعني
آتي لكم مشتاقة
كي أشكر الحرف الذي ثقفني
وأشكر البحر الذي
إلى حدود الشمس أطلقني
وهل تنام النخلة بعيدًا عن تربتها ؟
وهل يرضع الحر من غير ثدي حرة ؟
وهل يلجأ المبدع إلى واحدة لا تغذي إبداعه ؟

إنه التّـــوق إلى الدفء ، إلى الشـعـــر ، إلى الإبداع ، إلى الانطلاق من إسار الذات التي تكبلها مجموعة من القيود الثقيلة ، تعددها الشـاعرة، لتـصل إلى أكثر مـا يؤرقها مـن هموم الوطن والأمة العربية جمعاء.

آتي إليك اليوم ، يا بيروت
هاربة من قلقي النفسي
من توجّعي القومي
من أكذوبة السلام
آتي من التخلف الكبير
والتشرذم الكبير
والتناثر الكبير
آتي إليك من ثقافة الشراء ... والبيع
ومن مثقفي الظلام !!

*

آتي إليك اليوم يا بيروت
أمشي على حقل من الألغام
هاربة من مدن قد أحرقت تاريخها

وطلّقت مباديء العروبة

وطلقت مباديء الإسلام

والملاحظ في هذا المقطع أن الشاعـرة على الرغم ممّا تعرّضت له في حياتها مـا تزال مؤمنة بمبادئها القومية ، غيـر رافضة لها ، في حين نرى الآخرين قد تخلوا عن هذه المبـاديء ، فهى تتوجع قوميًا ، ويؤلمهـا التخلف، ويقـتل أحلامـها التشـرذم والتناثر ، وأصناف المثـقفين . . إنهـا تتـألم وتتوجع وحـسب ، في الوقت الذي طلّق الآخرون فـيه مبـاديء العروبة وم مبـاديء الإسلام ، وفي هذا إشـارة إلى تمسكـها هـى ، وإن لم تصـرح بهـا بشكل مـباشـر، ولأن الشاعـرة مازالت تحـتفـظ ببريق حلمـها القـومي والوحدوي ، أو ببقايا هذا الحلم ، فإنـها تقف مع المشهد القومي الواضح في لبنان ، والذي تتجاوب مع نزعتهـا نحو التحرر بعيدًا عن أكذوبة السلام:

آتي إلي الجنوب

حيث الأرض تنبت الليمون ، والزيتون ،

والأبطال

وتنبت العزةَ والنخوة ، والرجال

آتي إلى الجنوب

كي أقبّل السيوف ، والخيول والنصال ..

وفي فمي سؤال :

هل أصبح الجنوب وحده .. قاعدة النضال ؟

لبنان إذًا لا يمثل عند الشاعرة ذكريات مضت ، ولا يمثل جمالاً مفتقدًا في أماكن أخرى من العالم ، بل إنه أكثر من ذلك بكثير ، لذلك استخدمت الشاعرة تعبير (آتي) ، فهي تأتي طواعية ، تبحث عن الكبرياء المفتَقَد ، وعن الحلم المجهَض ، ذلك الحلم العروبي القومي ، القائم على الندّية والمواجهة والتحدي . .

وللعروبة سمفونية ملونة ، عجزت ريشة الشاعرة عن أن تجعلها بيضاء ضاحكة ، وعن أن تجعلها سوداء غاضبة ، لأن السموفنية رسمت نفسها ، وفرضت ضاحكة ، وعن أن تجعلها سوداء غاضبة ، لأن السمفونية رسمت نفسها ، وفرضت ألوانها على الشاعرة ، ولوّنت ريشة الشاعرة ، فكانت رمادية رمادية . . استطاعت أن تغير خط سير شاعرة في مقابلة جمهورها :

يا أحبائي :

كان بودّي أن أسمعكم

شيئًا من موسيقى القلب

لكنّا في عصر عربي

فيه توقف نبض القلب

وكأن الشاعرة سمعت مستنكرًا هذا النبض الحزين الرمادي ، فبينت السبب الذي دفعها إلى هذا التوجه ، فهى تحمل همًا قوميًا ينزرع على هامتها ، وبين ضلوعها :

يا أحبائى :

كيف بوسعي

أن أتجاهل هذا الوطن في أنياب الرعب ؟

كيف بوسعي

أن أتجاوز هذا الإفلاس الروحي

وهذا الإحباط القومي

وهذا القحط وهذا الجدب ؟

هذا امتداد لفكر الشاعرة ، التي تشعر بالإحباط ، وهي التي عاشت عصور الازدهار القومي ، ولأن الشاعرة تنشد الفكر الوحدوي القومي ، فلابد أن تعتمد على الإنسان الذي هو أصل الفكر واعتماده ، فتختم بمقارقة هذا الواقع الإنساني المرهق ، فالإنسان يعيش بلا حرية ، بلا فكر، فكيف له أن يعيش الفكر :

تتشابه كالرز الصيني
تقاطيع القتلة
مقتول يبكي مقتولاً
جمجمة ترثى جمجمة
وحذاء يُدفن قرب حذاء
لا أحد يعرف شيئًا عن قبر الحلاج
فنصف القتلى في تاريخ الفكر
بلا أسماء

وإذا ما وصلنا إلي الغضب السياسي الوطني ، وقفنا عند قصيدة مميزة (وصل السيف إلى الحلق) ، وما صعب أن يصل السيق إلى الحلق ، فيمنع الإنسان من أن يرفع لسانه لينطق بكلمة، أو يبوح بهمسة مهما كانت صغيرة . .

تعالج القصيدة موضوعات عدة يغلفها الغضب ، منها الشعراء المرتزقة الذين يزينون للحاكم ما يريد ، ويخفون الحقيقة. ومنها الوطنية الضائعة في الأوطان ومنها البطولات المزيفة التي ندّعيها صباح مساء ، ومنها المآسي التي تقع في أرجاء الوطن كل يوم ، ومنها الحمية بكل أنواعها ، ومنها البكاء على الأزمات التي كانت تعني للشاعرة شيئًا .

أيها المربد

ها نحن سقطنا بين أنياب النجاة

مافيات . مافيات

أصبح الشعر بأيدى المافيات

أصبح النقد بأيدي المافيات

فاعلاتن فاعلاتن فاعلات

يا زمان العرب الرحّل

يا عصر المنافي والشتات

يا زمانًا عربيًا

لم نعد تنفع فيه الكلمات

يا زمان القبح .. من أين يجيء المبدعون

في بلادي

وعلى أي صليب من دموع يولدون

أعطني شبرًا من الأرض يثمر وطنًا

ما به مشنقة .. أو مخبرون

أعطني شبرًا من الأرض يسمي وطنًا

لا تغطيه المنافي والسجون
وصل السيف إلى الحلق
ومازال لدينا شعراء يكتبون
وصل السلّ إلى العظم
ومازال لدينا شعراء يكذبون
ويقولون على الأوراق ، ما لا يفعلون

أظن أن مناقشة المقطوعة من قصيدة (وصل السيف إلى الحلق) متعذرة في عرض فكرها وموضوعها ، لأنها تلخص الوجع العربي من الإنسان إلى الوطن ، ومن حرية الفرد ، إلى حرية الأوطان . .

البعد الوطنى فى شعر سعاد الصباح :

عندما قمنا بتحديد أبعاد الشعر السياسي عند سعاد الصباح ، وجدنا أن قصيدتين من قصائد مجموعتها (برقيات عاجلة إلى وطني) وهما : (إنني بنت الكويت) و (وردة البحر) موجودتان في ديوانها الأسبق (فتفافيت امرأة) ، وهذا الأمر له دلالة مهمة في أثناء النقد والعرض فالشاعرة ليست منفصلة عن وطنها الصغير كا يُظن ، ولم تنتظر محنة مؤلمة لتعبر عن حبها لوطنها ، فهذا الشعور النبيل بالانتماء إلى الوطن والأرض موجود ، وعميق

بعمق الإرتباط بالجذور ، لكنه في الوقت نفسه إحساس راق غير مجاني ، فالشاعرة لا تحمل ريشتها لتكرّس قصائدها في الوطن بمناسبةً وبغير مناسبة ، وذلك انطلاقًا من رؤيتها القومية العروبية الوحدوية ، والدليل على ذلك أن الشاعرة كانت تحمل أكثر من همّ :

١ - الهم الوحدوي القومي .

٢ - الهم الاجتماعي التحرري .

٣ - همّ المرأة وتحررها الفكري .

٤ - الهم الذاتي الجمعي ، الذي ينبع من ذاتها ، ويلتقي معها فيه كل الذين يعيشون في هذه المنطقة العربية .

ولكن ما إن تعرض الكويت لمأساته الكبرى في العصر الحديث حتى أسقطت الشاعرة من حساباتها كلّ الهموم الكبيرة التى تحملها ، وانبرت للحديث الأهمّ والأنبل ، وهو حديث الوطن وجراحاته :

ومن الساعات الأولي نجد الشاعرة تزهد بكل شيء وتبدأ بالعمل من أجل الكويت وشعبه ، سواء كان ذلك بجولاتها ، أم كان بأشعارها :

«الورقة الأخيرة . . أخصصها لعدد من المناضلين

الأصدقاء . . وعلى رأس هذه الكتيبة المقاتلة يأتي صديقنا محمد الرميحي ، الذي أشبه بدينامو ثقافي وإعلامي ، يشتعل ليلاً ونهارًا .

والصديق الشاعر عبد الرحمن النجار ، الذي كان سفيرًا من أكبر سفرائنا على صعيد الكلمة الشاعرة . . والذين صبروا وصابروا ، والتلاميذ، الذين تركوا منازلهم وجامعاتهم ومدارسهم ومكاتبهم ، وانطلقوا في شوارع العواصم الغربية ، تحت المطر والثلج ، والضباب والرياح، ليؤكدوا للعالم أن الوطن الصغير الجميل لن يمحي من الخارطة».

فالشاعرة بدأت من البداية . ومع كوكبة من الأصدقاء والأدباء رحلة نضال من أجل البلد الصغير الجميل - على حد تعبيرها - وبقيت تقاتل بجهدها وقلمها إلى أن كان التحرير .

وعلى الرغم من أن المأساة تبقى مأساة مهما كانت النتائج ، إلا أنها خرجت لنا بشاعرة وطنية من الطراز النادر ، وبمجموعة من القصائد المطرزة بحب الوطن ، وألوان الفجيعة والحزن ، ضمّ ديوان (برقيات عاجلة إلى وطني) ثماني قصائد هى :

- إننى بنت الكويت
- وردة البحر

- بطاقة من حبيبتي الكويت
- سوف نبقى غاضبين
- سيرحل المغول
- ثلاث برقيات عاجلة إلى وطني
- من قتل الكويت
- نقوش على عباءة الكويت

وأغلب هذه القصائد في حب الكويت مؤرخة باليوم والشهر والسنة، وهذا التاريخ له دلالة كبيرة في سير عملية النقد ، فالشاعرة كانت مواكبة للحدث ، وعلى مستوى الحد لحظة بلحظة ، لم تنتظر لترى النتائج التي تترتب على المأساة ، وإنما اندفعت بفطرتها ، وبفكرها إلى الساحة الشعرية المقاتلة غير آبهة إلا بالوطن وحبه .

(برقيات عاجلة إلى وطني) . . العنوان مهم في فهم النصوص كما ترى الدراسات النقدية ، خاصة في النصوص الشعرية الحديثة ، التي نهتم بعنوانها وتاريخها ، وترتيبها في المجموعة الشعرية ، فالشاعرة هنا في هذه المجموعة ، لا تقدم نصوصًا في الوطن وحسب ، وإنما تقدم نموذجًا مختلفًا ، وهو البرقيات ونظم البرقيات يتلاءم والحدث الذي تتناوله ، فالوضع

الراهن آنذاك لا يحتمل تدبيج القصائد والشرح والتعليل ، والمقدمات والنتائج ، وإنما يستدعي ذلك من الشاعرة التفاعل الآني مع الحديث من خلال برقيات عاجلة مرسلة إلى هذا الحبيب (الوطن) وأول هذه البرقيات : (إنني بنت الكويت) وهى التي تحدد الهوية والانتماء ، وتتناول الصلة التي تربط بين الشاعرة ووطنها ، والبرقية الأولى بعنوانها - مع أنها قديمة - وموضوعها وترتيبها ، كانت موفقة ، وتستحق احتلال الصدارة في المجموعة، فالإنتماء يعطينا فرصة النقد والتحليل من منطلق محدد :

من جرب الكيّ لا ينسى مواجعه

ومن رأى السُم لا يشقى كمن شربا

وخير الدين الزركلي عندما ألّمت بوطنه الطواريء وتعرض للنكبات خاطبة :

الأهل أهلي والديار ديارى

وشعار وادي النير بين شعاري

ما كان من ألم بجلقّ نازل

واري الزناد فزنده بي دار

وخير الدين الزركلي نفسه يقول عن الوطن الصغير :

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنًا ألفت ولا سكنا
ريانة بالدمع أقلقها
ألا تحس كرىً ولا سنا
لو مثلوا لي موطني وثنًا
لهممت أعبد ذلك الوثنا

فعلى الرغم من الإنتماء القومي الكبير للشاعرة ، إلا أن انتماءها الوطني هو الأبرز في المحن كما رأينا من شعراء آخرين ، وأدباء متميزين على الصعيد العربي في مختلف المراحل .

وما أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

وفي هذا الإطار تحدد الشاعرة هويتها : إنني بنت الكويت .

إنني بنت الكويت
هل من الممكن أن يصبح قلبي
يأبسًا مثل حصان من خشب ؟
باردًا
مثل حصان من خشب

هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب ؟
إن جسمي نخلة تشرب من بحر العرب
وعلى صفحة نفسي ارتسمت
كل أخطاء ، وأحزان ، وآمال العرب

كويتية تشرب من بحر العرب ، وتعجز عن إلغاء رؤيتها وانتمائها ، وتحمل كل ما ارتكبه العرب وما يؤملونه .

وللبحر وردته ، ووردة بحر الشاعرة : الكويت ، تصورها الشاعرة بميزاتها :

كويت ، كويت
هنا ابتدأت رحلة السندباد
هنا وردة البحر قد أزهرت
وراح ابن ماجد
يقطف نجمًا ، ويزرع نخلاً
ويخلق في لحظات التحدي بلاد
هنا الشعر والنخل يغتسلان معًا
في مياه الخليج
فجاءت رباب إلى وعدنا

وبانت سعاد

أمـام هذه البلاد الجـميلة التـي حوت الحـرية والفكرية تقف الشاعرة مجددة انتمـاءها واعتزازها ، ذلك لأن هناك من سيحبط آمالها وأحلامها .

كويت ، كويت
لقد قرّر العالم العربي اغتيال الكلام
وقرر أيضًا
إبادة كل الطيور الجميلة ، كل الحمام
ونحن طيور مشردة لا تريد سوى حقها بالكلام
ونحن طيور مثقفة لا تطيق
غسيل الدماغ ، وكسر العظام
ونحن حروف مقاتلة
سوف تهزم بالشعر كل عصور الظلام
ويسعدني أن تظل بلادي
ملاذ العصافير من كل جنس
وبيت المغنين والشعراء
ويسعدني أن يكون تراب بلادي

مزار البنفسج والشهداء
وسقفًا لمن تركتهم حروب العروبة دون غطاء
ويسعدني أن تظل بلادي جزيرة حرية رائعة
بها الفجر يطلع حين يشاء
بها البحر يهدر حين يشاء
بها الموج يغضب حين يشاء
ويسعدني أن تظل بلادي فضاءً رحيبًا
ونافذة تتنشق منها الهواء
فعصر المباحث صادر منا السماء
وصادر منا الحقائب ، صادر منا السفر
وأدخل للسجن ضوء القمر

عندما نقرأ هذه الوردة البحرية ندرك السبب الذي جعل الشاعرة تضمها إلى ديوان المحنة ، مع أنها كتبت من قبل ، ونشرت في ديوان سابق ، إنها المفارقة المرّة التي تريد أن تبديها الشاعرة فالكويت التي تنتمي إليها وردة بحر للحب والحرية ، ماذا سيحل بها فيما بعد ؟!

البلد الذي ضمّ على ترابه الأفكار المتضارية ، والوطنيات المتعددة ، ماذا ينتظره ؟!

ها هي الكويت ترسل برقية مهمة تتحدث باسم كل الكويتيين، تتناول ذكريات الوطن الجميل عند أهله ، وخيرات الوطن التي عمّت أهله منذ القدم ، وتؤكد تمسك الكويتيين بأرضهم التي تحمل دلالات الأوطان المهمة عند الأبناء .

الكويتيون باقون هنا

الكويتيون باقون هنا

وجميع العرب الأشراف باقون هنا

الكويتيون باسم الله باسم السيف

باسم الأرض ، والأطفال ، والتاريخ

باقون هنا

نلثم الثغر الذي يلثمنا

نقطع الكف التي تضربنا

يلاحظ أن الشاعرة مازالت مؤمنة بعروبتها ، لذلك تتحدث باسم أولئك الذين وقفوا إلى جوار الكويت ، وشعب الكويت ، مع بروز التوجه الوطني إلى جوار التوجه العروبي ، وهذا يؤد ما ذهبنا إليه من أن العروبة عند الشاعرة رؤية ، وليست عاطفة حسب ، لذلك نراها في أقسى الأزمات ، وفي أقصى الحالات لا تغضب الغضبة العاطفية الجاهلية لترفض العروبة بسبب واقع

وخطأ ارتكبه أحد هؤلاء وهذا إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على عمق الرؤية السياسية لدى الشاعرة ، التي ماتزال مؤمنة بتعامل المثل :

نلثم الثغر الذي يلثمنا

نقطع الكف التي تضربنا

وعن الصورة المشرقة المشرّفة للمقاومة والصمود ، تحدثنا قصيدة (سوف نبقى غاضبين) والصورة تتسم بكثير من الواقعية ، فشعب مسالم أعزل يتعرب لهجوم كاسح غير متكافيء ، لا عددًا ولا عدة ، فالشاعرة لا تصور إلا الواقع كما تراه دون لجوء إلى تضخيم الذات ، وترى في هذا الصمود ، وفي ذلك الغضب انتصارًا حقيقيًا ، وها هى تستنفر كل عناصر الوطن من شجر وحجر وإنسان ليكون في المواجهة والتصدي :

ربما حطمتم أبو ابنا

ربما روّعتم أطفالنا

ربما هدمتم البيت الكويتي

جدارًا فجدارًا

غير أنا سوف نبقى

مثلما الأشجار تبقى

مثلما الأنهار ، والغابات ، والوديان

والأنجم تبقى

مثلما حرية الإنسان تبقى

فاسحبوا خنجركم من لحمنا

وأعيدوا لؤلؤ البحر إلينا .. والمحارا

وتبلغ المنطقية ذروتـها عند الشاعرة عندما تتناول جـانبًا أقرب ما يكون إلى الذاتية ، فيهي لا تتنكّر لمواقفها الفكرية ، ولا تلغي مواقفها السابقة، بل تستنكرها بمنتهى الجرأة والواقعية :

أيها الجار الذي هدّم داري

وأنا عمّرت في قلبي له ركنًا ودارا

إنني مكسورة مقهورة ذاهلة

تقذف الخيبة أحلامي يمينًا ويسارًا

يا الذي أهديته الماء .. وأهداني الصحارى

يا الذي أهديته الأفق .. وأهداني الحصارا

يا الذي أهديته نصراً من الله

وأهداني احتلالاً وانكسارا

يا الذي أحرق أسراب العصافير

وما قدّم للريش اعتذاراً

لا تؤاخذني إذا جُنّ جنوني

أنت لم تترك لإنسان خيارا

وقد اعتمدت الشاعرة للوصول إلى قمة التأثير في القارىء أسلوب الموازنة لتبرز المفارقة المرة .

فهى - والكويت كاملاً معها - لم تكن جارة حيادية تجاه الجار ، بل كانت جاراً منفعلاً مضحيًا محبًا ، لذلك تذكر ما قدّم الكويت ، وما قدّم الجار ، دون أن تذكر اسم البلد الآخر ، وكأنها تخشى شماتة الآخرين إن أفصحت عن اسمه .

الهدم	البناء
الصحاري	الماء
الحصار	الأفق
الانكسار	النصر

وانظر معي إلى لحظة الانهيار ، واخش معي تلاشي الأحلام التي تعيش مع الشاعرة حياتها :

أيها الماشون في الفجر على أشلائنا

ما الذي يجدي صراخي ؟

ما الذي يجدي كلامي ؟
وأنا مسحوقة حتى عظامي
من تُرى يسمع صوتي ؟
وأنا مدفونة تحت الركام
عندما يطعنني في الظهر سيف عربي
يصبح التاريخ عاراً
عندما يذبحني أبناء عمي
في فراشي
يصبح الحلم العروبي غباراً ..

هل من علاقة بين الفجر الزماني ، والفجر الدلالي ؟!

على الرغم من أنّ التوقيت كان فجراً إلا أن الشاعرة كثيراً ما ردّدت عبارة الفجر العروبي الوحدوي ، وكثيراً ما انتظرته ، ليأتي أخيراً سائراً على الأشلاء ، لذلك نجدها تتألم من سيف العربي الذي اغتالها ، وتخشى - كما سلف - أن تدوّن الاسم للتاريخ، فالعار لا يُمحى عندما يحمله التاريخ ، والنتيجة المنطقية عندما يحصل كل هذا أن تتلاشى الأحلام العروبية . . لكن عسى أن تكون إلى حين .

لم يطل غياب الحلم فقصيدة (سيرحل المغول) تمسك الشاعرة فيها كل ما يمكن أن يعيد الحلم من عروبة وإسلام ، وذلك من خلال الإيمان المطلق بجدلية التاريخ ، وحتمية ، في أن يدور من جديد ، وأن يعيد الأمور إلى نصابها ، وبقيت الشاعرة على صمتها في الكشف عن الأسماء والهويات، مكتفية باستعارة رمزية أظن أن اختيار الشاعرة للمغول والتتار جاء للرمز وحسب، أو عفو الخاطر ، أليس المغول والتتار من اجتاح حاضرة الإسلام قديمًا - بغداد ؟

تتحدث الشاعرة عن كل التضحيات التى يُقدمها الكويت ، وتقرن ذلك بالأمل القادم :

سنرجع الكويت ، مهما امتدت الأيام
ونُرجع البحر إلى زُرقته
ونرجع الفجر إلى حُمرته
ونرجع الطفل إلى لعبته
ونرجع الأبراج في الكويت مستقيمة
سنرجع الكويت مهما أطبق الظلام
ونرجع الديرة . والأخوال .. والأعمام
وننقذ الرسول من اثامهم

وننقذ الإسلام
سنرفع المصحف في يميننا
ونرفع السيوف في شمالنا
ونهزم الغزاة مهما عربدوا ، واستكبروا
وأحرقوا .. ودمرّوا
لا يعرف التاريخ في مساه
طاغية لا يقهر

وثلاث برقيات عاجلة إلى وطني ، تعد بمنزلة البيان الرسمي، أو السيرة الذاتية لوطن تكتبها واحدة من بنات هذا الوطن ، وفيها تبين الشاعرة أن الطبيعة في الأشياء هى المهيمنة ، فمن عرف الحب لا يمكنه أن يعرف سواه ، وأنّ من فطر على حب الأشياء السامية لن تغير نظرته للأشياء إن رأى منظرًا قبيحًا . .

تعالج الشاعرة المحنة بقالب شعري قلّ أن نجد مثله ، وبنفس واثقة من النهج الذي اختطته لذاتها :

(١)

سوف نظل دائمًا
أهل الندى ، والعفو ، والسماح

لو جرّحونا مرة

نطلع كالأزهار من ذاكرة الجراح
أو كسروا جناحنا
كنالهم
أكثر من صدر ، ومن جناح
أو دخلوا بيوتنا
نطعمهم من خبزنا وتمرنا
نشركهم برزقنا
نحيطكم بحبنا
ونفرش الورود في موكبهم
وننثر الأقاح ..
نحن الكويتيين من عاداتنا
أن نستضيف الشمس في بيوتنا
وأن نجير الجار
نحن الكويتيين من طباعنا
أن ننبذ العنف

وأن ندعو العصافير إلى مائدة الحوار

نحن الكويتيين من أخلاقنا

أن نرفض الظلم على أنواعه

ونكرة الطغاة والطغيان

نحن الكويتيين من تراثنا

أن نعصر القلب لمن نحبهم

وأن نكون دائمًا في جانب الإنسان

(٣)

يا من زرعتم في ضلوع شعبي الرماح

كيف بوسع عاشق أن يرفع السلاح ؟

في وجه من يحبهم

كيف بوسع العين أن تقاتل الأجفان

نحن الكويتيين لا تخيفنا

مفاجآت البحر ، أو زمجرة الرياح

فنحن عشنا دائمًا في داخل الإعصار

ونحن ندري جيدًا ما قلق ، وما أسئلة البحار

فلملموا خيولكم وانسحبوا

ولملموا أشياءكم وانصرفوا

لا أحد يقدر أن يغير التاريخ

أو يستعمر الأرواح

لا أحد يقدر أن يطفيء نور الشمس

أو يُصادر الصباح

إن الشاعرة سليلة العرب . . تتمثل قول الشاعر المتنبي :

كالبدر من حيث التفتّ رأيته

يهدى إلى عينيك نوراً ثاقبًا

كالبحر يقذف للقريب جواهرًا

جودًا ، ويبعث للبعيد سحائبًا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها

يغشى البلاد مشارقًا ومغاربًا

صفات العطاء والجود والكرم هي الصفات التي تختارها للكويت ، سترشده بتاريخ هذه الدولة القريب ، الذي تعود أن يكون معطاءً ، والسماح من طبيعة الإنسان فيه ، وهو الذي كان على الدوام مضيافًا ومستقبلاً للآخر .

أى شاعر بإمكانه أن يغضب ، وأن يثور ، وأن يشتم عندما تحلّ به مصيبة ، لكنهم قلة أولئك الذين يستطيعون قهر البنادق والورود ، وردّ العدوان بالحب ، وإذا سألنا عن الأثر الذي تتركه هذه القصيدة ، فإنه يفوق ما تتركه تلك القصائد المليئة بالعنف والغضب ، لأنها تُريك الفارق الحضاري الكبير بين هذا وذاك ، وتُحاكي المنطق عندك وأنت ترى شعبًا مسالمًا يُستباح ، وتسلب إعجابك بصمود هذا الشعب المحب ، وتنبيك عن بشاعة الجريمة، عندما تطرح على نفسك سؤالاً :

كيف يُرد الحب لهؤلاء ؟

وتجيب بسؤال آخر محير :

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

أما قصدة (من قتل الكويت) فإنها تعد بحق سنام هذه المجموعة لأنها حملت سمات عديدة :

- فيها تحليل فكري للمأساة وطبيعتها
- فيها نقد لمرحلة التعاطف المرضي .
- فيها نقد ذاتي يفسّر الأشياء التى تحتاج إلى تفسير .

وعبر عشرة مقاطع مشحونة بالعاطفة والغضب ، وحب الوطن ، تقدم الشاعرة قصيدة ملتهبة ، مليئة بالسياط التى تُدمى

الفكر والعاطفة والجسد ، لم لا ، وأول الدواء أن نتعرف على موطن الداء ، ثم نسعى لمداوته ، وأهم الأدواء أن نعترف بوجود المرض فينا وألا نكابر . .

قد يسأل سائل : أين كانت هذه النظرة الناقدة من قبل ؟

لا حرج في السؤال ، ولا صعوبة في الجواب ، خاصة لأمة تفكر بقلبها ، وتفسّر بقلبها ، ولا تترك مجالاً للتفكير الناقد ، وإن تنسّمت رائحته غضبت . . .

أليس منا من قال : وعين الرضا عن كل عيب كليلة . .

تبدأ الشاعرة بسؤال لغز : من قتل الكويت

الإلغاز فيه يكمن في البدهية ، وفي الإدهاش الذي سيقابل المستمع أو القاريء ، وهل هناك من لا يعرف ؟! والإلغاز بحاجة إلى فك الرموز، والشاعرة تقوم بذلك في مقاطع القصيدة العشرة، وتبين أن القاتل غير الذي نعرفه ، وغير الذي تظهر صورته على شاشات التلفزيون، إنه لم يكن سوى أداة ، أما القتلة الحقيقيون فالقصيدة تنبري لكشف الأقنعة عن وجوههم .

المقطع الأول يتساءل عن هوية هذا القاتل ، بأسلوب الاستفهام :

هل أعجمي يا ترى قاتلها ؟

أم عربي جاء من أرض العرب ؟

وفي المقطع الثاني تعـدّد الفظائع المرتكبة لتنتهي بسؤال مـحيّر أيضًا :

من قتل الكويت ؟

هل نزعة سادية فينا إلى الخراب ؟

أم شهوة الأعراب كي يفترسوا الأعراب ؟

سؤال يحتاج إلى إجابة أيضًا ، فيه عودة إلى تاريخ الصـراع الـذي بدأ مـنذ وجـد العرب ، ولم ينته حـتى الساعة . ويخطر سؤال على سؤال الشاعرة : لماذا اختارت الشاعرة لفظ الأعراب ، ولم تختر لفظ العرب ؟

ألهذا الاخـتيار صلة بالموروث القرآني الكريم ، الذي اخـتار لهذا اللفظ (الأعراب) سمات خاصة ؟

أزعم أن الاختـيار كان مقـصودًا ، خاصة إذا انتـبهنا إلى أننا نستخدم هذه الكلمة بالدلالات المشابهة في حديثنا العادي .

أما المقطـع الثالث فإنه يحـمل اعتـرافات ذاتية نقـدية ، تبين الشاعرة من خلالها سمـات القاتل ، والعوامل التي ساعدت على صنع هذا القـاتل ، مع مـلاحظة أن الشـاعـرة مـا تـزال تتكلم بمنطقية، فهي تتحدث عن الشخص ، صاحب القرار ، والأسباب التي جعلته قادرًا على فعل ما فعل:

لم يسقط القائل من سحابة

ولا أتى من عالم الأحلام

أما اشتركنا كلنا في كورس النظام ؟

أما هتفنا كلنا لسيدّ النظام ؟

أما مسحنا دائمًا بشعرنا ونثرنا

أحذية الحكام ؟

ألم نجمّل دائمًا أخطاءهم ؟

بأعذب الكلام

وأكذب الكلام

ألم نسر في موكب الحجاج كالأغنام ؟

أسلوب الاستفهام فيه ما فيه هنا ، وإذا ما قرأنا هذا المقطع مع التركيز على عبارات وكلمات بأعيانها : كلنا ، كلنا ، شعرنا، نثرنا ، نجمّل دائمًا أخطاءهم ، موكب الحجاج ، الأغنام.

إذا ما فعلنا ذلك وصلنا إلى ما تريده ، فالشاعرة سبق أن وقفت مع الجار في أدبها وغيرها شارك بطريقة أخرى ، لكن الشعر المدوّن بقي - والمشاركات الأخرى نسيت أو عُمّى عليها ،

لذلك أصرّت الشاعرة على التعبير بـ : كلنا ، واستعارت شخصية الحجاج من التاريخ لتعبر عن الشخصية التي صنّعت بجهود (نا) . . وهذا الاعتراف بالأخطاء تكرر في المقاطع : ٥ ، ٦ ، ٨ وبصور مختلفة للعلاقة التي ربطت بينهم وبين القاتل وتلامس وجعها القومي الوحدوي بقوة وقسوة :

من حطم الكويت ؟

حطمها . تلك الدكاكين التي تبيعنا الوحدة والقومية

حطمها عصر من التلوث الخلقي ، والتفسخ القومي

والتلفيق ، والتصفيق ، والشراء ، والتصدير ، والتنظير

والكتابة الأمية

وبعد أن تأكد تورط الجميع بالكارثة

من قتل الكويت ؟

من قتل الكويت ؟

لا أحد يجرؤ أن يقول (لا) .

فلكنا شارك في جريمة القتل

وفي تربية الثعبان

تختم قصيدتها المميزة بكل ما فيها بالأمل ، بالانبعاث من

جديد ، ولولا هذا التفاؤل كانت القصيدة نوعًا من جلد الذات وحسب :

ستبعث الكويت من رمادها .. كطائر الفينيق

وتبدأ الرحلة من أوّلها

ويرفع القلوع سندباد

وينبت العشب على دفاتر الأولاد

وتصرخ الأمواج في الخليج

حي على الجهاد

بدأت الشاعرة ديوانها بنصوص كويتية نابضة بعضها مما قبل الأزمة ، وها هي تختمها بفرحة العودة إلى الوطن ، بعد أن انتهت المحنة ، وعاد المبعدون إلى بُيوتهم ، ومدنهم وذكرياتهم ، وبذلك تدرجت المجموعة حتى وصلت إلى الخاتمة التي بإمكان الشاعرة أن تريح ريشتها بعدها بعد أن كانت تكتب دمًا ، لتعوض ما أفقدته من حنان الوطن ، وأمومة التراب .

يا أمنا الكويت

ضمينا إلى صدرك بعد غربة

فنحن من دونك يا حبيبتي

جيش من الأيتام

لا نعرف الحبّ ، ولا الدفء ، ولا السلام

ونحن من دونك يا حبيبتي

مسافرون ضيعوا خارطة الشهور والأيام

ونحن من دونك يا حبيبتي

حمائم قد نسيت مباديء الكلام

تعود الشاعرة إلى أرضها متعبة بمأساتها الوطنية ، وبكارثتها في أحلامها الوحدوية والقومية ، ولكن لابد من القول بأن هذه المجموعة على ما فيها غضب ، كانت تمثل شخصية الشاعرة الواقعية والمتسامية ، فمن أول بيت إلى آخره كانت الشاعرة تتناول أصحاب القرار ، الذين جلبوا المصائب والكوارث ، ولم تتعرض لعامة الشعب ، لإيمانها بعد قدرتها على فعل شيء أمام القرارات المتخذة .

شاعرة كانت ، نابضة كانت ، حزينة كانت ، بل فاصلة من تراب الأرض كانت ، ولهذه الأرض كانت ، وإليها كان الولاء والشعر .

وقفة مع الرؤية السياسية لسعاد الصباح :

ليست هذه الوقفة للموافقة أو الاعتراض ، ولا يقصد منها أن نوافق الشاعرة على ما قدّمته ، ولا أن نصادر آراءها ، ولولا ما تعودناه من مصادر الرأى الآخر ، ورفض الاختلاف ، ما كنا بحاجة إلى مثل هذه الوقفة ، وإنما المراد منها رصد الرؤية السياسية على الصعيدين القومي والوطني ، وتحديد الخط البياني لهذه الرؤية إيجابًا أو سلبًا ، وذلك بما يتناسب والرؤية التى تحملها ، وليس بما يناسب .

١ - الشاعرة تحمل رؤية فكرية قومية وحدوية ، وهذه الرؤية بقيت متصاعدة في جذوتها وتعابيرها ، وفي كل المضوعات التي طرحتها، والشاعرة عبرت عن هذه الوحدوية صراحة في نثرها ، كما تمثلها في شعرها :

«بكلمة أخرى ، فإن التزامي ، كان التزامًا بالخط القومي ، الوحدوي» .

وبقيت ملتزمة بالخط الوحدوي القومي ، حتى عندما عادت لتتحدث عن وطنها الصغير (الكويت) وإن كانت المأساة قد هزّت قناعاتها بعد من المثل ، والقواعد التي التزمتها ، إلا أن إيمانها لم يتزعزع بصورة مطلقة ، لذلك نجدها في ديوانها (خذني إلى

حدود الشمس) والذي صدر بعد الأزمة الكويتية ، تعود إلى الإحساس القومى الوحدود ، خاصة في قصائدها عن بيروت .

فالرؤية لديها واضحة علمية مدروسة لا تتبرأ منها ، ولا تندم عليها :

«هذا موقف معروف ، ومسجل ومكتوب ، ولا أخجل منه لأنه جزء من فكرى ومن قناعتي ومن خطي القومي . .

إن الوحدة سوف تبقى دائمًا في هذه المدينة الفاضلة التي نسعى للوصول إليها ، رغم ارتفاع الأمواج ، وجنون العاصفة . . » .

ما قالته الشاعرة كان بعد محنة الكويت ، وهذا إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على توازنها ، وعلى عمق فكرها ، وأن هذا الخط الفكري لم يأت من فراغ ، وليس من الهشاشة بمكان ليتهاوى ، ويدعوها إلى التبرؤ منه .

٢ - مع الجانب الفكري القومي هو الغالب ، إلا أننا نجد بعض المبالغة والاندفاع ، خاصة في مجموعتها (حوار الورد والبنادق) ، وكان من الممكن ألا يقبل مثل هذا النقد ، لولا أنّ الشاعرة اعترفت به ودوّنته، وهذا التدوين بحد ذاته يمثل نقطة إيجابية ، لأن الشاعرة وقفت مع ذاتها وأدبها وقفة

نقدية - مع إدراكنا لطبيعة الظروف والأحداث التي دفعتها إلى هذه الوقفة .

«ربما كنت مخدوعة ، أو مغرورة ، أو رومانسية ، حين اندفعت بكل عاطفتي في تأييد نظام كان يخطط في الظلام لإبادتي وإلغاء وجودي.

وربما كنت مضللة ، حين لم أكتشف الوجه الحقيقي للنظام العراقي الذي كان يقوم على القمع . . وربما كان عذري أنني شاعرة . . قبل أن أكون منجمة . . أو طبيبة نفسية . . لأعرف طبيعة الأنظمة ، وأفكارها ، ونواياها . .

وأتنبأ بما سوف يحمله لي ولبلادي ، وللوطن العربي / من كوارث وويلات» .

هذا الكلام مهم للغاية ، والشاعرة - حقيقة - ليست بحاجة لأن تدافع عن نفسها ، أو أن يدافع عنها أحد ، فموقفها جزء من كل ، أشارت إليه بكل صدق ، ولا يجرؤ أحد أن ينفي ذلك :

«والواقع ، أن علاقتي الأدبية والروحية بالعراق ليست علاقة سرية حتى أختجل بها ، فهي كعلاقة ملايين من الخليجيين وقفوا مع العراق في حربه» .

ليس من حق أحد إذًا أن ينتقد ، فالموقف كان خليجيًا عمومًا، وكويتيًا على الخصوص ولا يتسع المجال لنذكر الأدبيات الأخرى المماثلة .

* * * * *

الفهرس

١ - مقدمة : سعاد الصباح ٣
٢ - صورة الواقع العربى فى شعر سعاد الصباح ٩
٣ - الرؤية السياسية عند الشاعرة سعاد الصباح ٦٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع : ١٣٧٩٧/ ٢٠٠٤

I.S.BN. 977 - 01 - 9182 - 5

صورة الواقع العربي

فى شعر

سعاد الصباح

قدمت الشاعرة وصفاً دقيقاً، وحقيقياً ومعبّراً عن الإنسان العربيّ المستسلم إلى عجزه وفشله والمطمئن إلى سقوطه، هذا الوصف يعكس فى حقيقته وجوانبه ارتباطها الوجدانى العميق بالقضايا القومية الكبرى واحترامها لإنسان بلادها، هذا الإنسان الذى توارث جوهر أخلاقياته ولكنّه أخفى الجوهر بقشور سطحية أفقدته فاعليته كإنسان عليه دورٌ إيجابىّ نحو وطنه. فكان وصفها للعرب وصفاً علمياً معرفياً مبنياً على الاحترام والصدق من دون تغليف.